الكتاب الاول

في العالم ظلمة ينعمون بالجاه والسؤدد
وفيه مظلومون يشقون ليل نهار
وأود أن أكون من الآخرين

يناير ١٩٤٨

obeikandl.com

obeikandl.com

تمهيد

ضيقت علىّ الإدارة الخناق فى عام ١٩٣١ فرصدت أمام دارى الجواسيس ليل نهار . وكنت أسكن فى ذلك الوقت فى حارة ضيقة فى حى « السكاكينى »، فأثارت هذه المراقبة شكوك الجيران وشُبه البوابين . فأخذوا ينظرون إلىّ شزرا ، ويتهامسون فيما بينهم كلما وقع نظرهم علىّ . فصبرت على هذا الشرط ويلا . وقلت فى نفسى شر سيزول متى تحقق الرؤساء ظلم هذه الرقابة، ولكنهم حسبوا صبرى عليها تحديا لهم . وبدل أن يسحبوها أو يخففوا من شدتها تمادوا فيها إلى حد بعيد . أرسلوا ورائى غلمانا تتراوح أعمارهم بين الثانية عشرة والعشرين يلزمون خطواتى لزوم الظل ، لا يتعففون عن الركوب وراء العربات ، والقفز فى الترموايات من ناحية الشمال ، ومطاردة السيارات على العجلات ، وآخرين لمشاركتى فى المائدة التى أجلس عليها فى مشارب القهوات يرهفون آذانهم بشكل ملحوظ لما يدور بينى وبين جلاسى بدون أن يشتركوا فى الحديث ، ثم يتظاهرون بتقييد بعض الملحوظات فى كناشاتهم ، فضج أصحابى ومعارفى من هذه الحال، وابتدأوا ينسحبون من حوالىّ واحدا بعد الآخر . وتعذر علىّ العمل فى جريدة أو مكتب ، وأوشكت البقية الباقية من رأسمالى الذى كنت أنفق منه منذ سنين بدون استثمار على النفاد .

أسقط فى يدى ولم أدر لى مخرجا من ورطتى ، وتملكنى الأرق ليلة ولم يغف لى فيها طرف . فأخذت أقلب الأمور على جوانبها ، فتحققت انى هالك قريبا لامحالة . ولم تطمئن نفسى للتسليم ، وعددته جبنة لا تتفق وطبيعتى ، وقلت ان الوزارات عندنا ـ فى ذلك الوقت ـ لا تعمر كثيرا . فماذا يمنع من مغادرة

مصر إلى بلد آخر من بلاد الله حتى تستبدل الاقدار ناسا بناس ؟؟ ولكنى شعرت بشيء من الغضاضة وخفت أن يعد هذا فرارا من الميدان . فنهضت من فراشى وجلست إلى مكتبى وكتبت بضعة كتب إلى من أثق برأيهم من الأصدقاء أسألهم المشورة ، ولم يغب علىّ ردهم إلا مدة الطريق. وكأن الردود كلها كانت مكتوبة بقلم واحد . ولو شئنا تلخيصها للخصناها فى العبارة الآتية « الفرار او الردى ». ومر بخاطرى شطر بيت أبى فراس «فقلت هما شيئان أحلاهما مر». حسنا . . . ولكن إلى أين ؟ وكان مؤشرا على جواز سفرى من القنصلية البريطانية فى القاهرة بالمداد الاحمر « ممنوع نزوله فى بلاد كذا وكذا . . » فقلت هذه التأشيرة تكفى لإثارة الشكوك عند قناصل الدول الأخرى . فاحتلت حتى أخذت جوازا جديدا صالحا لخمسة أعوام وحملته إلى جميع قناصل الدول الأجنبية فى العاصمة ، إذ كانت تستوى لدىّ بلاد أوربا كلها ولكن اسمى كان مقيدا عند الجميع فى القائمة السوداء ، وكان نصيبى الرفض طبعا وهل يفت هذا فى عضدى ، وقلت ان لكل مشكلة من مشكلات الحياة حلا لو أعمل الإنسان فكره . وتدبرت الأمر مرة أخرى ، فوجدت أنى لم أحرب القنصلية اليونانية بعد ، فضللت البوليس الذى تبعنى ولم أحتج فى ذلك إلى كبير عناء فقد كنت تدربت على « الزوغان » إذا استلزمت الحال . وقصدت دار القنصلية ، وسلمت على الكاتب وسألته فى سذاجة عن قيمة « الفيزة » ليوم واحد ، لأن لى صديقة أوربية مسافرة إلى « اثينا » وأحب أن أشيعها على ظهر السفينة حتى ميناء « بيريه » فقال إن أقل مدة « للفيزة » عندنا هى ثلاثة أيام وهى « فيزة المرور » . قلت ولكنى أحتاج ليوم واحد ، قال وأى ضرر عليك إذا أخذتها صالحة لثلاثة أيام . فقلت له هاتها على بركة الله . ودفعت له القيمة التى طلبها . وأشر لى على جواز سفرى دون أن يراجع قائمته السوداء .

وأخذت أعد العدة للرحيل ، فأعلمت صاحب الدار بالأخلاء وأصلحت ثيابى ، وحزمت كتبى وأودعتها عند صديق لى ، وأنا أكاد أذوب لفراقها . واشتريت تذكرة سفر لبلاد اليونان على سفينة رومانية . وأردت قبل الرحيل بيوم أن أزود ناظرى من القاهرة فانسللت من الأصدقاء والرقباء ودرت أجوب سبلها وأزقتها على غير هدى . وكنت أدخل فى درب وأخرج من شارع ، لا ألتفت يمينا ولا شمالا ، هائما على وجهى لا ألوى على شىء . وفى النهاية وقع نظرى على « لافتة » لمجلة « ر » الأسبوعية ، فخطر لى أن أزور صاحبها على غير سابق معرفة وكان لحسن الحظ هناك فاستقبلنى فى غرفته سائلا عما إذا كانت لى رغبة عنده يقضيها ، فقلت إنى مسافر إلى أوربا غدا بقصد دراسة الحالة السياسية والاجتماعية هناك . وفى النية كتابة رسائل عن دراساتى ، وأردت أن أعرف ما إذا كانت لكم رغبة فى مقالاتى . ففكر قليلا ثم قال « حسنا ! ونحن مستعدون أن ندفع لك جنيها عن كل مقال » . قلت « اتفقنا . ولكن يحسن أن تزودنى بتذكرة صحفية باسم مجلتكم حتى يتسع لى هناك مجال البحث والتنقيب » وسلمته صورة فوتوغرافية لى كنت أحملها معى ، وكتبت له بالانجليزية جواب الاعتماد . وأمضاه وختمه ولصق الصورة عليه واستلمته منه وخرجت مودعا منه أحسن توديع .

وفى الصباح المبكر قصدت الاسكندرية أحب بلاد مصر إلى نفسى ففيها قضيت زهرة شبابى ، فيها درست فى « العباسية الثانوية » ، وفيها ضاربت فى « البورصة » وجمعت عشرات الألوف من الجنيهات ، فيها بدأت حياتى السياسية ، وخطبت ألوف العمال ، زرت سجن « كوم الدكة » فى عهد السلطة العسكرية البريطانية شهوراً ، وزرت سجن « الحضرة » ثلاث سنوات فى عهد الاستقلال ، فيها كتبت وألفت وترجمت ، وكان لى فيها مجالس أنس ولهو ، تعلمت أول

مبادئ الشباب فى مشانيها ومصايفها ، حقبة من حياتى قضيتها فى بلد الاسكندرية مشحونة بجسام الأحداث

طفت فى شوارعها ساعات أسائل الدور والمنازل هل أصابها ما أصابنى ، وهل عدت عليها الأيام كما عدت على ، فكان جوابها صريحا ، « لا ! لا ! » الشوارع نظيفة ، والعمارات قد جددت شبابها بما أدخل عليها من التحسينات ، والشمس ضاحكة ، والنسيم العليل يهب من ناحية البحر ، والأمواج اللطيفة الخفيفة فى تكسرها على الصخور كأنما تداعبها باللمس والتقبيل ، والناس رائحون غادون وعلى وجوههم مظاهر المرح والمسرة - أما أنا فأسير وحدى كسير القلب . مهيض الجناح ، لا يأبه لى مارّ ولا مارّة ، كأن لم يكن لى فيها دولة أغريب أنا . . . . ؟!

غريب فى بلدى وعقر دارى ؟ رحم الله الذى قال : -

ليس الغريب الذى نأى الديار به ... إن الغريب قريب غير مودود

ونظرت فى ساعتى فكانت الثانية عشرة ، وكان لايزال باقيا على قيام السفينة ، دالتسيا ، ساعتان فأسرعت إليها .

أخذت مكانى بين ركاب الدرجة الثالثة ، وأخذت أروح وأجىء على ظهر الباخرة مشرد اللب . وقبل اقلاع السفينة بقليل أعادت إلىّ رشدى ضربة على كتفى من أحد الضباط المصريين الذى استدعانى إلى مقصورة فى الدرجة الأولى وفتح لى (محضراً) طويلا عن وجهتى وأسباب سفرى لم ينله منه إلا عندما أذن الربان بالرحيل

كل شىء كان على مايرام ، جواز سفرى كان صالحا لخمسة أعوام ، لم أكن فاراً من وجه العدالة . ولم تكن هناك قضايا معلقة ضدى . والسفينة تصفر على

الدوام . فلم يبق على الضابط إلا أن يسرع بالنزول وسلم قائلا « إلى الملتقى القريب ! » فلم افهم مايعنى ولم أجبه بحرف واحد .

كل شيء حوالىّ يهتز ويتحرك ، صخب وصياح ، بكاء وضحك ، ولكل مسافر مشيعون من أهله وصحبه ، فدرت بعينى فى كل مكان فلم أجد صديقا ولا نسيبا ولا قريبا ، فأضع يدى عن غير قصد فى جيبى وأخرج منديلى وألوح به مع الملوحين . لماذا صنعت هذا ؟ لا أدرى . . وسقطت دمعة ساخنة من عينى هى أول عهدى فى سن الشباب بالبكاء .

فى الطريق

قضيت ليلتى الأولى فى جوف السفينة (دالتسيا) ولم أشعر فيها بمرض أو ألم فقد اصطلحت الريح والماء ، وكان الهواء بليلا ، والسماء صافية والماء يترقرق ترقرق الزئبق . وقد انعكس كل شيء على صفحته فكانت السماء ماء ، وكان الماء سماء ، وتبخترت (دالتسيا) فى مشيتها تبختر العروس فى يوم الزفاف وهى دائبة على الدوام على السير إلى الأمام فصعد الركاب من جوف الباخرة إلى ظهرها يمتعون عيونهم بمنظر البحر الخلاب ووقفوا فرادى وجماعات يلهون ويتسامرون ، يجرون هنا وهناك ، يروحون ويغدون وقد ارتسم البشر على محيا الجميع .

ولقد لفت نظرى رجل وامرأة غريبا الاطوار . أما المرأة فكانت عملاقة ضخمة الجثة . وقد بلغت من العمر أرذله بينما كان الرجل يناهز الثلاثين أو دونها قصير القامة مفتول الذراعين ، يشوب وجهه شيء من صفرة ، وبدا لى أنهما دائما متلازمان ، لا يفترق الواحد عن أخيه لحظة من الزمان . وذكرنى الرجل

فى طاعته العمياء وولائه العجيب أمام قسوة واستبداد هذه العجوز بالعبيد فى الزمن الخالى .

وتفقّدت المرأة الرجل فى اليوم الثانى من رحلتنا فى كل مكان فلم تجده ، فجاءت إلىّ وأمارات الغضب مرسومة على ديباجة وجهها . وقبل أن تسلم علىّ أو تقدم نفسها إلىّ قالت لى :ـ

« هل رأيت جورجنيدس ؟ إلى أين ذهب ؟ »

فأجبتها مشدوها . « عفوا أيتها السيدة المحترمة ! من يكون هـــذا السيد جورجنيدس الذى لم أتشرف بعد بمعرفته ؟ »

« جورجنيدس جارك . ألا تعرفه ؟ »

وهنا أحب أن أضيف شيئا . وهو أن رجال الدرجة الثالثة كانوا ينامون فى عنابر مفصولة عن مقاصير النساء .

« آه ! أتقصدين ابن السيدة المحترمة ؟ »

فملقت فى غاضبة ، وقد امتلأت عيناها دما وصرخت فىّ « ابنى !! ابنى !! » فارتج علىّ . . « عفوا خاخا . . . خادمك »

« دعنى وشأنى أيها الثرثار » وانطلقت غاضبة إلى مقدمة السفينة

فهرولت خجلا مشدوها إلى الجهة المضادة . وكم كان عجبى شديدا حين لمحت السيد جورجنيدس خارجا من عنبر النوم آخذا طريقه نحوى وكان يلهث من عناء التعب كالكلب : ولا أدرى ماذا أتعبه ، فدفعنى حب الاستطلاع إلى استيقافه والتحدث معه .

« سيدى لامؤاخذة . السيدة المحترمة خالتك تجدّ فى البحث عنك فى كل مكان »

فابتسم ابتسامة مرة وقال « لعلك تعنى زوجى »

« نعم ! نعم ! . زوجك » وأشرت له الى الطريق الذى سلكته

وعالجت أن أغلب حب الاستطلاع فى نفسى ، ولكنه غلبنى . نزلت فى السلم ، وفتحت حقيبتى وأخرجت منها ثلاث قطع كبيرة من فاكهة المانجو الفاخرة. ثم عدت إلى ظهر السفينة لأبحث عن الزوجين فوجدتهما فى إحدى الزوايا ، حيث تمددت المرأة على كرسى من كراسى البحر وقد جلس بجوارها جورجنيدس القرفصاء على قطعة سجاد صغيرة يعد قهوة المصر . فسلمت وقدمت لها قطعتين من الفاكهة الغالية فابتسمت المرأة وأخذتهما شاكرة . ومنذ تلك اللحظة صرت ثالثهما على ظهر السفينة ، ولم يسألانى شيئا عن شخصى ، ولم أحاول بدورى ان اسألهما شيئا عن شخصيهما . ولم يطفىء صوت الرجل الشجى وضربه على الكمان طول الرحلة حب الاستطلاع فىّ ، وقد كنت أكظمه فى نفسى على مضض

وأخيرا بلغنا « بيريه » فصعد رجال البوليس السرى والعلنى إلى ظهر السفينة ، ووقف الركاب صفوفا وفى حلقات ينتظرون الأذن لهم بالنزول إلى الميناء . ولما وصل إلىّ رجل البوليس . قال « أرجو أن تأتى معى إلى مكتب الشرطة فى الميناء »

وأخذ جواز سفرى معه وسار أمامى . فحملق الواقفون فىّ ، ولعبت أفكار السوء فى رءوسهم ومن يدرى ؟ فربما حسبونى مزيف نقود أو مجرما دوليا . ولكنى لم أفقد شجاعتى فتركت « دالتسيا » وتبعت الضابط إلى مكتب بوليس الميناء . وهناك سألنى .

« إلى أين أنت مزمع السفر ؟ »

وبدون سابق تفكير ، وبدون أى تلعثم . قلت « إلى ألمانيا »

« وأين تأشيرة السفر لألمانيا ؟ »

فابتسمت لأظهر له عدم أهمية هذه المسألة وأجبته :

« لم يكن لدى وقت فى المدة الأخيرة فى مصر لوفرة أعمالى وسأحصل عليها من القنصلية الألمانية فى أثينا . هذا أمر هين حدث لى فى أسفارى أكثر من مرة. »

فقاطعنى الضابط بشدة وبجمل قصيرة ، وكأنما كان يلقى أوامره على أحد الجنود .

«هذا لاأصدقه يامستر ترانسيت (Mr. Transit) عليك أن تغادر هذه البلاد حتى المساء . هذه هى الأوامر . أنت تعرف الأسباب . إلى الملتقى يامستر ترنسيت.»

وأعاد إلىّ جواز سفرى .

ولم يأخذنى العجب لذلك . وعرفت ماوراء الأكمة . ولكنى كنت مصمما على التغلب على كل الصعاب ، والصبر على الشدائد . فأشرت فى الحال وبدون تردد إلى سيارة أجرة .

«إلى أثينا . إلى القنصلية الألمانية . ولكن أسرع بقدر مايمكنك»

وهناك قيل لى أن أترك عندهم جواز السفر إلى الغد نظرا لضيق الوقت ولوفرة الأعمال لديهم ، وأن أعود فى الصباح لاستلامه . ولم تثمر كل توسلاتى ورجاءاتى شيئا . فاستعدت جواز السفر وعدت إلى السيارة وقلت للسائق «عد بى إلى بيريه ، ولكن تمهل هذه المرة فى سيرك» وذلك لانى كنت فى حاجه إلى وقت للتفكير .

ولما مررت فى طريق بميدان «أمونيا» لمحت السيدة والسيد جورجنيدس ، فلوحا لى بيديهما .

«هللوا ، أيها المصرى !»

فاستوقفت السائق ونزلت من السيارة .

«كيف أنت ؟ وكيف تجد نفسك ؟ وماذا تصنع هنا ؟»

قلت . «لاشىء . لدى أعمال هامة مستعجلة فى برلين واضطررت للسفر من مصر بدون أن أؤشر على جواز سفرى من القنصلية الألمانية هناك . وقد لفت نظرى ضابط البوليس اليونانى إلى ضرورة مغادرة البلاد حتى المساء

وقصصت عليهما ما جرى لى فى القنصلية الألمانية .

« عد مسرعا إلى بيريه . فالقنصل الألمانى هناك ليس لديه عمل كثير . وأغلب الظن أنه سيؤشر اليوم لك بالسفر إلى المانيسا . ونجدنا عصر اليوم فى المقهى الواقعين أمامه . تعال الينا لنحتفل بتوديعك ، جرب حظك ، كتب الله لك التوفيق » .

فصعدت ثانية فى العربة ورأسى يكاد يلتهب . وقلت للسائق « خذ أقرب طريق إلى بيريه حيث القنصلية الألمانية هناك » .

وصعدت العربة تلالا ونزلت تلالا ، فالميناء تقوم فى أرض جبلية . وأخيرا وصلت إلى دار القنصلية وكان القنصل رجلا ذكيا أنيسا يجيد العربية كمصرى مثقف ولم يطل الحديث بيننا كثيرا .

سلمت على القنصل بالانجليزية وفى يدى جواز السفر المصرى ، فرد علىّ بالعربية ورحب بى أجمل ترحيب ، فطلبت اليه أعطائى « فيزة » بثلاثة أشهر فتناول منى جواز السفر وختمه ووقع عليه ثم أعاده الىّ وهو يبتسم فألقيت عليه نظرة خاطفة فرأيت به تأشيرة للأقامة فى المانيا لمدة عام

فشكرته وهممت بالانصراف ، فاستوقفنى قائلا : « ألم يدهشك شىء »

قلت دون تفكير : « لا ! »

« وكيف ذلك ؟ انت تحدثنى بالانجليزية وأنا أرد عليك بالعربية وطلبت الىّ تأشيرة بثلاثة أشهر فأعطيتك تأشيرة باثنى عشر شهرا » . ثم قال معتذرا « ولو كان فى استطاعتى أن أمنحك أكثر من ذلك لفعلت » .

قلت : « اعذرنى فأنى على عجل » وقصصت عليه قصة الضابط اليونانى .

« الآن لا بأس عليك » ثم مسح على كتفى ورجانى أن أشرب معه فنجانا من القهوة وقال لى : « لقد كنت قنصلا لألمانيا فى مصر فى عام ١٩١٤ فاضطهدنى

الانجليز فى بلدك وسجنونى طول مدة الحرب ، وسلبوا مالى ، وحرموا علىّ دخول بلادهم والبلدان الواقعة تحت نفوذهم ، فأخذت عهدا على نفسى أن أحاربهم فى كل مكان . وقد حذرت موقفك ففعلت كل مافى طاقتى لمساعدتك . فل لاخوانك من الناقمين على الاستعمار البريطانى انى فى خدمتهم إذا استطعت إلى ذلك سبيلا » .

مرة ثانية فى اثينا . وهناك تناولت غداء فاخرا ، وأنفقت عن سعة ثم أخذت أتريض فى الشوارع ، وعرجت على الزوجين ، وكانا يجلسان مع جماعة من أصدقائهما . وقضيت معهما عصر اليوم . ولكنى أردت قبل مغادرتى أثينا أن أمزح مع ضابط البوليس الذى اضطهدنى وسخر منى ، فكتبت له البطاقة الآتية :

سيدى الضابط المحترم !

أسافر اليوم مساء إلى المانيا ، وكم كان بودى أن أمر عليك للتسليم قبل سفرى ولكن ضيق الوقت يحول بينى وبين ذلك . أما لقب مستر « ترانسيت » الذى تفضلت وخلعته على فأنى آسف جد الأسف لرفضه فلا تهتم باستخراج براءته وأنه ليسوءنى جدا مثل هذا الرفض . . . الخ

ولما أزف الوقت سألت جلاسى عن فندق رخيص فى برلين فتطوع منهم رجل غليظ يعمل وكيل أفلام فى القارة الأوربية لأرشادى . قال « نعم أعرف فندقا رخيصا أستطيع أن أوصيك به واسمه (إلى فندق السلام) ويقع فى شارع (مارك جراف) أرجو أن تقرىء مديره السيد ستيلكا منى السلام » واستودعتهم الله وأخذت سيارة إلى المحطة وقطعت تذكرة سفر لبرلين ، وصعدت فى القطار المار بسلونيكا حيث عملت تأشيرات المرور اللازمة .

فى برلين

محطة « أنهلتر » ! محطة « أنهلتر » ! رنت فى أذنى تلك الجملة ، فانتفضت فى مكانى ، إذ كنت تعبا ونصف نائم من مشقة السفر . مرة أخرى محطة « أنهلتر » فتنفست الصعداء ، وتمطيت وأطللت من نافذة القطار لأتأكد من أنى بلغت برلين ، ورأيت حقا الحروف السوداء على اللوحة البيضاء جلية واضحة . أى والله نحن فى برلين فجمعت أمتعتى وغادرت الرصيف إلى بهو المحطة وكأنى هناك قد سمرت فى مكانى ، وتمر بى الذكريات القديمة ، القديمة جداً . هنا كنت مرة لا بل مرتين مرة فى عام ١٩٢٢ ومرة فى عام ١٩٢٣ ، ترى قد تغيرت المدينة عما كانت عليه فى ذاك الوقت ؟ ولم لا ؟ ! ألم أتغير أنا كذا بدورى ؟ وفى لمحة البصر طفت أمام عينى صور مختلفة ، صالة مضاءة ، أناس أنيقون ، موسيقى صاخبة ، ورأيتنى فى مقصورة أحد المسارح جالسا وبجوارى أديبة رشيقة تسمع رواية عائدة ، رأيت نفسى فى سيارة فخمة أجوب الطرقات وأنفق المال ذات اليمين وذات الشمال ورأيت دفتر شيكاتى . يالله أية مبالغ هائلة هذه التى كنت أبعثرها فى ليلة واحدة فى أحد الكباريهات . رأيت ذلك لا كما يراه النائم ، ولكنى رأيته رأى العين .

قلت بصوت عال إلى « فندق اكسلسيور » لا . . . إلى « فندق اسبلانادا » وهززت رأسى هزة اليأس . لا . . . لا . . . هذه مدن صغيرة صاخبة لا يطيق الانسان العيش فيها . غلمان . . . خدم . . . ورؤساء خدم ، موسيقى ، مطاعم ، ومحلات للبريد وللتلغراف ومصارف وتقاليد ، ورسميات ، ولا تنس أن هناك محتالين ومغامرين ، خلعاء وخليعات . هذه صحيفة قديمة طويناها منذ زمن بعيد

وأنا لا أحب اليوم الا الهدوء والسلام . وعند كلمة السلام تذكرت عنوان النزل الذى أعطى لى فى اثينا ، وقلت والله الا قصدت « إلى فندق السلام » فى شارع « مارك جراف » متيمنا باسمه لعلّى واجد فيه السلام الذى من أجله تركت بلدى وهاجرت إلى برلين . وعندئذ أحسست شيئا من الشجاعة يدب فى قلبى ..

أقفلت على باب غرفتى الصغيرة فى الطابق الأعلى للفندق ، وأخذت أحسب نقودى . لازلت أملك ثلاثة وعشرين جنيها انجليزيا . نثرتها أمامى على المائدة. أربع ورقات رقيقة شفافة من فئة الخمسة جنيهات وثلاث سميكة من فئة الجنيه الواحد ، أخرجت بيطء كناشتى من جيبى وكتبت على ورقة فيها الحسبة التالية :

٥ جنيهات أجرة المسكن فى شهرين .

١٤ جنيها نفقات اقامة لمدة شهرين

٤ جنيهات ثمن معطف للشتاء

---

٢٣ جنيها

جميل ! . وعلىّ الآن فقط أن أجد لى غرفة مفروشة ، وألا أنفق فى الشهر أكثر من سبعة جنيهات هذا يعنى ١٤٠ ماركا . مبلغ لا بأس به يستطيع الواحد أن يرتب حياته على أساسه . وفوق ذلك سأضيف إليه شيئاً مما أربحه لو أنى كتبت مقالين فى الأسبوع لصحيفة « ر » فى مصر . وأشرقت الحياة أمام عينى. وانتفضت هذه المرة انتفاضة الرجاء ، ربما استطعت أن أقتصد شيئاً فى المستقبل ويدق الباب .

« تفضل »

فتتحرك أكرة الباب فقط .

« تفضل ادخل » ولكن أحدا لا يدخل

« لا تؤاخذينى أيتها الآنسة لقد نسيت أن الباب مغلق »

وأقوم وأفتح الباب فيدخل رجل أشقر الشعر ، أصفر الوجه ، وينحنى امامى ويقول :

« آسف لست بآنسة . . . اسمى ستيلكا مدير الفندق . أحببت فقط أن أعرف ما إذا كانت لك رغبة ما لأقضيها »

« أشكرك . كل شىء على مايرام »

« هل ستقيم مدة طويلة فى برلين ؟ »

« نعم ! »

فسلم وأقفل الباب وراءه بهدوء وانصرف . وذهبت إلى مكتبى وكتبت مقالا عن رحلتى من مصر إلى برلين ، وغيرت ملابسى ونزلت إلى شارع فردرش وأخذت أجوبه من الشمال إلى الجنوب مرتين ثلاث مرات ، حتى كدت أسقط من الاعياء .

وفى اليوم التالى زارنى السيد « ستيلكا » ووجه إلىّ نفس السؤال السابق فقلت له :

« نعم . . . أظن أن مدة اقامتى فى برلين ستطول » .

« تسمح لى أن أسألك ما إذا كنت مزمعا البقاء بين ظهرانينا ثلاثه أربعة أشهر ؟ »

« ربما امتدت إقامتى ثلاثة أربعة أعوام كذلك . »

فابتسم ابتسامة خبيثة وقال لى :

« إذا كان الأمر كذلك فسيكلفك الفندق نفقات كثيرة . »

فلم أفهم ماذا يعنى . وفغرت فمى . وقلت :

« هذا هو رأيى أيضاً »

« هل وجدت لك غرفة ؟ »

« لا »

« فى استطاعتى أن أجد لك غرفة مليحة ، ليست بالغالية ، أتحب أن تراها؟ »

« بكل سرور . »

« انتظرنى فى تمام الساعة الثانية عشرة على ناصية الشارع ، ولا تقل شيئا مما دار بيننا لأحد . »

والتقينا فى الموعد المضروب ، وأخذنى إلى شارع « كوخ » فى البيت رقم ٧ فى الطابق الرابع ، ودق الجرس ففتحت لنا الباب امرأة قصيرة غليظة حسبتها لأول وهلة خادمة الدار ، غير أنه ظهر لى فيما بعد أنها زوجته . وأرياني غرفة كبيرة كراؤها ثمانون ماركا فى الشهر (أربعة جنيهات) وأخرى صغيرة كراؤها ستون ماركا . ففضلت الصغيرة على الأخرى وذهب السيد ستيلكا على أن يأتى بأمتعتى ، وابتدأت السيدة تستنطقنى

« كذا ! أنت تملك آلة كاتبة ، وتصرف جنيهات انجليزية . . هكذا قال لى زوجى ! أصحيح هذا ؟ »

« نعم »

« وستبقى فى ألمانيا أربعة أعوام ؟ »

« نعم »

« يمكنك أن تعيش بيننا ، كل شىء عندى نظيف ، وان تجد فى هذه الجهة مسكنا رخيصاً بهذا الأجر ، صحيح أنك لو انتقلت إلى شمال برلين ستجد مسكنا أرخص ، ولكن أى سكن ! ؟ دع القذارة جانبا ! الحى حى عمال ، وهناك يسكن العاطلون ، وما أكثرهم عندنا الآن وسيسرقونك كل شىء . أليس كذلك؟ »

« نعم »

« أمتزوج أنت ؟ »

غلبتني هذه المرأة ، هذه المراة الغليظة فاخرجتني من « نعم » إلى « لا »

« طبعا ستتزوج من برلين ؟ » وغمزت بطرفها محذرة إياى بأصبعها وقد ارتسمت على فمها ابتسامة خبيثة

وفى مساء اليوم التالى دعوت السيد ستيلكا وزوجته إلى غرفتى وقدمت اليهما شيئا من النبيذ والفاكهة وأخذنا نتجاذب أطراف الحديث من هنا وهناك فقصت على فيما قصته حكاية زواجها وجاء ضمن حكايتها ذكر خطيبة زوجها الأولى الآنسة « الزا » وهى فتاة رياضية تعرف السباحة وركوب العجلة ، وعضو فى نادى ثقافة الجسم العارى . وعند ذكر هذه الندوة خطر لى أن أكتب مقالا لمجلتى عنها ، واشتدت فى رغبة حب الاستطلاع ، فقطعت عليها حديثها ورجوتها أن تحدثنى شيئا عن هذا النادى

« هذا ناد لعلية القوم من ذوى وذوات القوام الرشيق يشتركون فيه ليعرضوا أجسامهم عارية للتفاخر والتنافس ، وكلهم من ذوى السيارات ، و« ايلزا » التى ذكرتها لك لا تستطيع الاشتراك فيه ، ولكنها تشترك فى ندوة أخرى للعمال »

« أتفتح هذه النوادى أبوابها علانية أو سرا ؟ »

« علانية »

سألتها عن عنواناتها ، فاعتذرت ، وقلت فى نفسى : هذه مادة جديدة للكتابة لا بأس بها .

الآنسة ماكسونج

وفى الليلة التالية جاء الزوجان صاحبا الدار مرة أخرى إلى غرفتى وبقيا عندى فترة قصيرة . وأخذت الزوجة تشكو : « لا تزال الغرفة الكبيرة خالية لم تؤجر . زوجى رجل كسول ، يبذر المال تبذيرا ، ينفق ماركا على سيجاره كل

يوم ، ولا يفكر البتة فى غرفتنا الكبيرة »

وقبل أن ينصرفا باعنى الرجل ثلاث تذاكر للملاه مختلفة بثمن مخفض ونظر إلى زوجته عند ذلك نظرة خبث وفى صباح ٣٠ سبتمبر أحضرت لى فراوستيلكا الشاى كعادتها وسلمت وبقيت واقفة مكانها تبتسم. قلت لها ، « ماذا ؟ وجهك مشرق هذا الصباح . كيف حال زوجك ؟ هل أجرت الغرفة الكبيرة ؟ »

جاءنى أمس أحد الطلبة يريد استئجارها . وكنت على وشك القبول ، لأنها بقيت شهرا كاملا غير مأهولة . ولكنه كان ثقيل الظل فترددت . وبعد الظهر أحضر زوجى آنسة أمريكية ، رأت الغرفة واستأجرتها فى الحال . عندها كان ، وحقيبة أسفار ضخمة وستبقى هنا نصف عام . يحسن أن يكون المستأجرون من الجنسين ، سأقدمك لها غدا » .

« أتتكلم الألمانية » ؟

« لا ، ولكن زوجى يستطيع أن يحسب جيدا بالانكليزية ، ون تو ثرى . . »

وبرت فراوستيلكا بوعدها . « السيد .. الآنسة ماكسونج ... » .

وكان بين الأمريكية وبين الأربعين أربع خمس خطوات تخطوها على خمسة أعوام ، هيفاء ، دقيقة الأعضاء ، ممشوقة القوام ، ذات شعر طويل أسود حالك ، تومض فيه شعرات بيضاء : يحسده جين كالفلال فى تكوينه . أما عيناها فكانتا خلوتين ، لا تفارق الابتسامة الرقيقة فمها . وعلى الرغم مما خطته الأيام على وجهها من آثار ، كانت إذا تكلمت انعكس على محياها الضدان ، فتقرأ فى صفحة وجهها روح الثورة التى ورثتها أباهادم جدودها الأرلنديين ، وروح البساطة التى ولدتها فيها تربية بوسطن الديموقراطية . هذه هى ما دابن ماكسونج ،

مدرّسة موسيقى . أوفدها المعهد الذى تدرس فيه إلى المانيا وفرنسا لتعلم

لغتى البلدين فى موطنهما ، على أن تبقى نصف عام فى كل بلد من البلدين لهذا الغرض . عرفت اسم « إلى فندق السلام » من الدليل .

وبعين الصقر ، وانف الكلب وقع ستيلكا فى الحال على فريسته ، رأى الكمان الثمين ، وحقيبة الاسفار الهائلة والدولارات القيمة ، فانتزعها من الفندق إلى داره . وهكذا صارت مادلين ماكسونج جارتى

تركت الامريكية لأول مرة فى نفسى أثرا عميقا طيبا . ووطدت الوحدة والجيرة أواصر الصداقة بيننا . كلانا غريب فى المانيا . وفضلا عن الجوار فانا كنا نتفق فى كثير من الميول والأذواق ووجهات النظر فى الحياة . فلم تمض الا أيام قلائل حتى ألف كلانا الآخر وسكن اليه ، واتفقنا على الانتساب لمعهد اللغة الألمانية الملحق بجامعة برلين . فكنا نقضى هناك ساعتين فى صباح كل يوم . كما كنا نتناول طعام الغداء معا ، ثم تقصد بعده الدار لتستريح بضع ساعات ولتجرى بعض التمرينات على كمانها : أما أنا فكنت أتسكع فى غضون ذلك فى شارع فردرش وما حواليه أقطعة جيئة وذهوبا قتلا للوقت ، وباحثا فى الوقت نفسه عن مادة طريفة لمقال أكتبه لمجلتى . وكنا نلتقى فى المساء فى غرفتها أو غرفتى فنقضى الوقت فى درس اللغة الألمانية والحديث والمناقشة وكثيرا ما كانت تضرب لى بعض المقاطيع الكلاسيكية على كمانها . ومن وقت لآخر كنا ندعو الينا صاحبى الدار أو نزور دور السينما والتياترو .

وطال عهدى بالتنقل عدة أيام فى شارع فردرش وطال وقوفى أمام وجهات حوانيته والتفرج على مايحتويه فانطبعت فى ذاكرتى بالتدريج صورته وحفظت أسماء ونمر المحلات عن ظهر قلب . وكان فى مقدورى أن أدخل فى امتحان أو مسابقة فى هذا الباب وأنجح بتفوق . فقد بت أعرف بالضبط مكان كل حانوت .

ولكن الآنسة ما كسوج كانت تأخذ ذلك على سبيل المزاح. وجاءت ذات يوم وبيدها ورقة وأرادت امتحاني.

« اصغ إلي جيدا.. قد بدأ الامتحان.. هل تقدر أن تذكر لي أية محلات تحمل النمر الأربع الآتية - ١٩٥ - ٥٨ - ٢٧ - ٢٨ - ؟ ؟ »

« أرجوك أن تذكري لي كل نمرة على حدة »

« حسنا.. نمرة ١٩٥ ؟ »

لم أفكر لحظة، بل انطلقت انطلاق السهم على نفس لم آخذه قائلا:

« دكانة خالية على ناصية شارع ليبزج »

« عجيب! »

ثم زدت مفاخرا « على الجانب الايمن »

« و ٥٨ ؟ »

« خمارة اسمها - بيرة ونبيذ من الدن - على الجانب الأيسر »

« منتهى الأعجاز! »

« و ٢٧ ؟ »

« على الجانب الأيسر، معهد لدراسة الكهرباء وعرض أفلام السينما »

« ها! ها! ها! »

« و ٢٨ ؟ »

« مدرسة لتعليم السحر »

« ستة من عشرة. وهذا فوق المتوسط بالطبع »

« وكيف ذلك ستة من عشرة فقط، أترانى أخطأت ؟ »

« لا تغضب كذا. مجرد سهو. مسألة تافهة من كثرة مذاكرتك للشارع، فقد اختلطت عليك المدرستان »

« نعم ! نعم ! عندك حق، ولكن هذا ليس بالأمر المهم فعجائز الناس عندنا فى القرى ما زالوا يعتقدون أن الفلم ليس إلا سحرا ، بل حتى أن بين شيوخنا نفرا يصر على أن السينما بدعة ، وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة من عمل الشيطان »

وكان قد مضى على تعارفنا نصف شهر ولكن أواصر الصداقة كانت قد تواطدت بيننا ، فسألتنى عن جولاتى المنفردة فى شارع فردرش فى العصر وعلى الأخص بعد أن بلغت غايتى من الشارع . وأظهرت رغبتها فى اصطحابى فى تلك الفترة وتمنت لو فكرنا فى رؤية بعض المناظر الغريبة المثيرة مما اشتهرت به برلين

قلت « لست أعصى لك طلبا ، وعندى لك غداً مفاجأة لم تخطر لك على بال »

وألحت علىّ أن تعرف شيئا عن هذه المفاجأة فلم أبح لها بسرها فقد كنت فى غضون الأيام الفائتة مجدا فى معرفة منتديات العراة . وقد وفقت اليوم فقط إلى معرفة عنوان أحد زعمائها . فاتصلت به وحدد لى موعدا لعمل حديث معه غدا . فتذكرت الموعد عند رجاء الامريكية لى ، واعتزمت على اصطحابها معى.

رياضة العراة

طرقنا باب الدكتور « مورين هوفمان » زعيم أشهر فرقة للعراة فى ألمانيا فى الموعد المضروب وكان لحسن الحظ يقيم على بضع خطوات منا وقدمت له الآنسة ما كسونج كسكرتيرة لى وبعد أن حيانا أظهر استعداده للأجابة على أى سؤال أوجهه إليه .

« من المؤسس الأول لطريقة الرياضة العارية أو فرق العراة فى ألمانيا ؟ »

« منذ نحو ثلاثين سنة كتب ـ أونجيفتر ـ من شتوتجارت ـ رسالة فى هذا الموضوع تعد نواة هذه الحركة . ثم أردفها بانشاء فرقة صغيرة جدا لم يكن لها شأن يذكر : بعد ذلك أخذت الحركة فى النمو والانتشار »

« ماهى أغراضكم الرئيسية ؟ »

« أولا ـ نشر الآداب بالرجوع بالناس إلى الحياة الطبيعية وإبعاد أفكار السوء من مخيلاتهم بتعويدهم النظر إلى الأجساد العارية وأكبر رجائنا معقود على تعويد الصغار أناثا وذكورا الرياضة العارية منذ الصغر .

ثانيا ـ تقويم الأجساد والبلوغ بها حد الكمال بممارسة الرياضة الطبيعية الخفيفة كلعب الكرة والتجديف والسباحة والجرى ألخ ألخ. مع البعد عن أعمال الرياضة الثقيلة مما يجهد الجسم كحمل الأثقال ، أو الرياضة الذهنية العنيفة مما يضنى الذهن ، لأنه يستلزم حصره فى ناحية مخصوصة كالألعاب التى يقوم بها بعضهم على المسارح من اللعب مثلا بعشرين حلقة فى وقت واحد والتقاطها من الهواء بدون أن تسقط على الأرض »

« ماهو موقف رجال الدين إزاء حركتكم ؟ »

« عندنا كثير من قساوسة المسيحيين واحبار اليهود »

« كم فرقة لهذا النوع من الرياضة فى ألمانيا ؟ وكم منها فى برلين ؟ »

« يوجد فى ألمانيا أكثر من مائة فرقة . وفى برلين يوجد نحو ثلاثين فرقة »

« هل يوجد بينها اتحاد أو رابطة ؟ »

« نعم ولها مؤتمر يعقد مرة فى كل عام »

« هل لهذه الجماعات أغراض سياسية ؟ »

« تنقسم هذه الجماعات إلى قسمين قسم له أغراض سياسية وقسم لاشأن له بالسياسة والقسم الأخير أنا رئيسه . أما القسم الأول فينقسم إلى قسمين فريق اليمين وفريق اليسار . ويمثل فريق اليمين الجماعات البورجوزاية ويمثل فريق اليسار جماعات العمال . وهذه الفرق الأخيرة إنما أنشئت لمنافسة الفرق البرجوازية .

وهذان القسمان رغم اختلافهما فى الاغراض السياسية فانهما يشتركان معا فى الأغراض الأدبية والصحية »

« هل لهذه الحركة أنصار فى الممالك الأخرى ؟ »

« نعم فالحركة موجودة بالفعل فى كثير من الممالك الأخرى وآخذة فى النمو فى فرنسا وبلجيكا وهولندا وانجترا والنمسا وسويسرا ، ولنا نحن أعضاء فى جنوب أفريقيا وفى امريكا وفى الصين والهند . وإذا صادف أن زار أحد هؤلاء بلادنا فأنه يفد الينا ويتمتع برياضتنا البريئة . والمصرى الوحيد المنضم لنا مقيم الآن فى فرنسا وقد مارس رياضتنا فى زيارته الأخيرة لبرلين وكان طربا مسروراً »

« ماهو موقف الحكومة إزاءكم ؟ »

« على أحسن مايرام ويوجد بين رجالات الحكومة المعدودين أعضاء فى فرقتنا وقد منحتنا الدولة غابة فسيحة ودارا للاستحمام نظير أجر منخفض جداً »

« ماهى طريقة الانضمام إلى فرقتكم ؟ »

« يملأ الراغب استمارة معدة لذلك ويقدمها الينا ونحن نبحث إجابته ويناقش فيها . فمثلا إذا كان رجلا متزوجا سألناه لماذا لم تشترك زوجته معه ، وإذا كانت سيدة متزوجة سألناها بدورها عن سبب عدم اشتراك زوجها ، وماهى الأسباب التى حدت بالطالب إلى طلب الانضمام ألخ

وفى بعض الاحايين يطلب منه تزكية من بعض الاعضاء . وأدنى حد الاشتراك مارك واحد فى الشهر .

« هل لكم لسان حال ؟ »

« نعم » وقدم لى مجموعة من مجلة اسمها — دى فراى كوربر كلتور —

« هل تسمحون لغير الأعضاء بزيارة ناديكم ؟ »

« لا . إلا أنه فى بعض حالات استثنائية يطلب بعض الأعضاء تذكرة

ضيافة لبعض أقاربهم أو أصدقائهم الأعزاء عند الوثوق من ميولهم نحونا .
وجرت العادة أن هؤلاء الزوار يشتركون عندنا على الفور »

« ألا يمكنكم أن تساعدوني على عمل زيارة واحدة ؟ »

« الطريق سهل . املأ طلب انضمام وبعدها يبقى لك الحق فى زيارة أو أكثر .
واليك بعض الاستمارات »

وقدم لى ولسكرتيرتى بعض طلبات انضمام فأخذناها مبتسمين واعدين بالتفكير قبل الانضمام ، وسلمنا وخرجنا بعد أن شيعنا إلى الباب الخارجى

ولم نكد نخطو عتبة الدار حتى انفجرت صديقتى فى الضحك وقالت « حقا أنها لمفاجأة عظيمة »

قلت « لا ، بل ان المفاجأة الحقيقية ستكون غداً . فقد سبق أن ارتبطت بموعد مع الهر كوخ رئيس فرقة من فرق العمال العراة على زيارته فى النادى ورؤية فرقة عارية . ومكان النادى لا يبعد كذلك عن دارنا فهو قائم فى شارع فردرش . فهل لك ان تصحبينى غدا ؟ »

فاحمرت وجنتاها وأشاحت بوجهها جانبا وقالت مبتسمة « أعدك بالتفكير قبل الاقدام »

وبعد تردد وتفكير طويل قصدنا فى اليوم التالى نادى الهر كوخ الذى كان فى انتظارى . قدمت له سكرتيرتى فرحب بها . وطاف بنا غرف النادى جميعا . ثم انتهى بنا المطاف إلى صالة فسيحة وجدنا فيها عددا من النساء والأطفال والرجال يبلغ نحو الثلاثين عراة الأجسام والعورات . سلم عليهم الرئيس وأخذ مجلسه أمام البيانو فى زاوية الصالة وعندئذ انتظموا فى صفين وأخذ يعزف لهم على البيانو وأخذوا يؤدون بعض الحركات الرياضية على دقات الموسيقى .

والعجيب الذى يجب ان أقرره هنا أن هذا المنظر لم يثر الشهوة فى نفسى بل على العكس أثار الاشمئزاز فيها . وكم كان منظر المرأة كريها وهى عارية تثب وتتمايل وتتأرجح .

وصمتت الموسيقى ، وانتهى التمرين ، وانطلق العراة على الأثر إلى النوافذ يفتحونها على عجل ، فقد فسد جو الصالة ، وأصبحت رائحة الهواء لا تطاق . وتسابقوا جريا إلى الحمامات وهناك وقف كل واحد منهم تحت (الدش)

وأظهر الهر كوخ استعداده لقيادتنا إلى أحد حماماتهم الليلية للسباحة والى احدى غاباتهم فشكرنا له حسن استعداده ولم نفكر بعد ذلك فى الاقتراب من هذه الجماعات على اختلاف طبقاتها

محاولات فاشلة

وانصرم شهر أكتوبر وتلاه نوفمبر وانتصف ديسمبر أو كاد . أيام كلها طيبة أذكرها بالخير قضيتها مع الأمريكية فى درس اللغة الألمانية ، والمطالعات وتعرف أسرار المدينة . وصلنى من مجلتى اثنا عشر جنيها ضممتها إلى رأسمالى الذى أنفق منه فى غير بسطة ولا تقتير

وأخذ عام ٩٣١ يسير وئيدا إلى قبره وأخذت أنفاسه تخمد يوما عن يوم وبرلين واقفة على قدم وساق تستعد لتشيعه إلى مقره الأبدى واستقبال خلفه مؤملة الخير على مقدمه . . وفى صباح يوم من أيام ذلك الشهر وصلنى كتاب من مدير المجلة يعتذر فيه باعتذارات سخيفة عن عدم مقدرته على مواصلة دفع أجرى ، فكان أول صدمة لى فى برلين فلم يكن لدى مورد آخر . وكانت حالة المانيا على العموم وحالة برلين على الخصوص من السوء بمكان ، وذلك بسبب تفشى البطالة . ولم يبق أمامى إلا الاعتماد على النفس وأين ؟ فى بلد فيه ملايين من العاطلين .

أحصيت ثروتى فوجدتنى أملك ٢٠٢ مارك ، إذن لا يزال أمامى شهر بل شهران أستطيع أن أحياهما فى برلين . وفى غضون هذه المدة سأحاول البحث لى عن عمـــل فلا معنى لليأس . فلأرفع رأسى ! ولكن ماذا عساى أن أعالج من الأعمال ؟ صناعتى الصحافة وهى أحب شىء عندى فى الوجود . ولم لا . ألا أعد هنا خبيرا فى المسائل الشرقية . طبعى إنه لايوجد هنا أناس كثيرون يعرفون فى هذه الناحية معرفتى ، فعلى أن أسرع

قصدت الصحف على اختلاف أنواعها ولكن النجاح لم يكتب لى عند إحداها ففى كبريات الصحف يوجد أخصائيون بل قسم خاص بالشرق الأوسط والشرق الأقصى ، أما صغراها فلا تطيق توظيف محرر خاص لشئون الشرق وقد استغرقت هذه المحاولة منى أسبوعا .

حبست نفسى فى غرفتى وسخرت منها ، أو كنت تريد أن تصدر فحما الى نيوكاسل . . وذهبت إلى مكتبى ونقبت فى أدراجه فلم أجد به شيئا ، أربعة معاجم ضخمة فوقه وكتاب الأجرومية الألمانية ، وبضع أوراق بيضاء وأخرى مكتوبة . قلبت جيوب بدلتى بعناية فائقة ، ويعلم الله وحده لماذا صنعت هذا وأخيرا أفتح حقيبتى فيقع نظرى على مائة « كارت بوستال » كنت أخذتها معى قبل مغادرتى مصر .

فكرة طيبة ! كم يمكن أن تدر الكتابة على صاحبها ، وفى كل مكان كتّاب وأدباء يتضورون جوعا . لابدّ لى من تغيير مهنتى فأبتدىء كتاجر من جديد . خطر لى أن أبيع هذه الصور على الصحف الاسبوعية المصورة ، وقد أنجح . ولم لا أنجح ؟ الناس فى الشرق يهتمون بصور أوروبا فلابد أن الأوروبيين يهتمون كذلك بصور الشرق ويشغفون بها . وفى استطاعتى أن أكتب لبعضهم فى مصر ليبعث الىّ باستمرار بصور جديدة وأعده بشىء من الربح . حقا إنها لفكرة

مدهشة . الا انه علىّ فى هذه المرة أن أظهر بمظهر التاجر . وإذا كتب لى النجاح فسأؤسس لى شركة لبيع الصور . وابتسمت لقصورى الهوائية ووجدت اسما فخما مثيرا لشركتى « شركة الصور المصرية للصحف فى الداخل والخارج » اسم له وقع رنان . تنقصنى كثير من الصفات التى تلزم التاجر ليكتب له التوفيق ، كالخفة والصفاقة ، وأنا شديد الحياء ثقيل الحركة . والذين ليس لديهم من الصغر استعداد لمثل هذا ، يلزمهم وقت طويـــل للتعليم . شىء من التمرين فى الدار قبل الأقـــدام . . ثم أجرب حظى . .

واقترضت من الآنسة ماكسونج حقيبة أوراقها وطبعت بطاقة لى وبدأت العمل . زرت دور المجلات المصورة ، وصعدت فى عدد لا يحصى من السلالم ونزلتها ، وعرضت على رؤساء التحرير بضاعتى ، ولعبت دورى على مايرام ، ولكنى لم أحصل على شىء فقد ذرعت برلين من أقصاها إلى أقصاها دون أن أبيع صورة واحدة . كانوا يقلبون فيها دون اهتمام ويقولون « آه آسفين . » « من هذا لدنيا الشىء الكثير » « نحن نرغب فى صور حديثة . صور اليوم اترك لنا عنوانك وعند ما نحتاج إلى شىء ندعوك . . . »

عدت إلى دارى من الزيادة الأخيرة ثملا أترنح كالسكران .

أغلقت باب غرفتى على وألقيت بالحقيبة فى إحدى الزوايا وأخرجت نقودى من جيبى وأخذت أعدها بسرعة . لا زلت أملك ١٤٠ ماركا . ذهبت إلى مكتبى وأخذت أعد نقودى من جديد . وفى المرة الثالثة قلت مخاطبا نفسى بصوت عال . وماذا عساك ترجو من النقود ؟ ١٤٠ ماركا ألمانيا تعميتها بكل أسف غير ميسور ولماذا بالله عليك تحزن الآن وأنت لاتزال ميسوراً . فى استطاعتك أن تحيا سبعة أسابيع أخرى على الأقل . . وعليه فقد ضمن رزقك حتى منتصف فبراير .

وهل كنت تنتظر شيئا آخر يوم غادرت مصر ؟ وهل وعدك أحد من الأهل أو الأصدقاء بمد يد المساعدة ؟ وأجيب على نفسى « نعم هذا ما أعرفه جيداً وأعرف أكثر منه . ولكن الشتاء قد ابتدأ ولم أجد عملا . ولاشك أن البرد والجوع سيقتلانى . ولكنى أعلم كذلك انى سأصبر على الجوع والبرد كما صبرت على غيرهما . فيم هذا الخوف الخانق ولازلت أجلس فى غرفة عمتى ولدى طعام ومعى ١٤٠ ماركا »

وكم تمنيت أن أصبح فقيرا لا أملك هذه الماركات فانى لم أعد أطيق سيف التهديد بالحاجة والعوز مصلتا على عنقى .

وسمعتنى الآنسة ما كسونج أتكلم فدقت الباب ودخلت . فرأت شعرى الأشعث ووجهى المتغير .

« هل اختلفت مع أحد ؟ لقد سمعتك تتكلم غاضبا بصوت عال فأردت فقط أن أطمئن عليك . »

« نعم . نعم . كنت غاضبا ولكن على نفسى . ولقد ضعفت وجبنت حتى صرت لا أقوى على منازعة أحد ولم تعد تعجبنى نفسى »

« لا أفهمك ؟ »

« لقد أنذرنى السخيف صاحب المجلة . والصحف الألمانيه عندها أخصائيون فى المسائل الشرقية ، والمجلات تريد صوراً حديثة »

« لا أفهمك ! اجلس أولا أوضح لى الأمر فى هدوء »

استيقظت فى صباح اليوم التالى مبكراً لأبحث لى عن غرفة رخيصة لأنى صممت على تخفيض نفقاتى الى أدنى حد ، علّ فرصة تسنح للعمل . وذكرت أن فراو ستيلكا كانت قد تكلمت عن الغرف الرخيصة فى الشمال . فأنذرتها بالاخلاء فى آخر يناير . وبحثت عن غرفه رخيصة هناك فوجدت غرفا رخيصة

كثيرة ولكن أصحابها يطلبون علاوة على الأجر ثمنا للنور والنار والغسيل والاستحمام والخدمة الخ الخ . وأصحاب هذه الغرف معذورون فهم من العمال المجدودين ، ومعظمهم بدون عمل ، وعليهم أن يكسبوا شيئا ليمسكوا به رمقهم. هكذا قالت لى عجوز محطمة والدموع فى عينيها .

عدت إلى غرفتى منهوكا . فقررت أن أبحث عن غرفة فى حى الأثرياء عند أناس لا يعيشون من الايجار وان كانوا ينافسون هؤلاء الفقراء التعساء. فقصدت حى الغرب فرأيت اكثر من خمسين غرفة فيها أنواع الراحة موفورة فاستأجرت لى غرفة فى ميدان نورنبرج نظير ٣٣ ماركا فى الشهر .

وبقيت عند « ستيلكا » حتى آخر يناير ، وكان لا يزال فى محفظة نقودى ورق بنكنوت وفى جيب صداوى عملة صغيرة ولم اضطر حتى هذه الساعة الى التنازل عن وجبة من الطعام إلا ان عينى أغفت قليلا فى هذا الشهر فقد كنت قلقا لخوفى من شبح الحاجة .

مترجم

كانت مقدمات عام ٣٢ مقدمات ليست بالطيبة ، فيها فقدت عملى فى صحيفة « ر » وكانت بدايته مفجعة ، فقد اضطررت لإنذار ستيلكا والبحث لى عن غرفة بعيدة ، فانفصلت عن رفيقتى ، وفيه انتهت مدة دراستى فى المعهد الألمانى فلم أعد أدرى كيف أقضى وقتى وبانتهاء الدراسة انقطعت صلتى بالجامعة والجامعيين . وأخذ رأسمالى فيه يتناقص يوما عن يوم ، وهوم شبح الحاجة فى الليل والنهار حوالى

ورأت الآنسة ما كسونج حالى فرثت لها وكتبت إلى معهدها فى بوسطن تطلب مد أجل اقامتها فى برلين بضعة أشهر ، لأنها أبت الانتقال إلى باريس قبل أن تطمئن علىّ

وأوشك الشهر على الانصرام وأردت أن أزور أصحاب الدار الجديدة قبل الانتقال اليها .

فأخذت طريقى إلى هناك سيرا على الأقدام ولم أنتبه إلى نفسى الا فى شارع بوتسدام . فأردت ان اشترى دخانا فوقع نظرى على اعلان كبير على واجهة الدكانة عن يانصيب كبير $\frac{1}{8}$ ورقة بخمسة ماركات تربح مائة الف مارك.

قرأت الاعلان عدة مرات وأعلمت فكرى .

حقا ما أذكى أولئك الناس الذين اكتشفوا اليانصيب ! انا أعتقد أنهم إنما أرادوا به أن يسدوا يداً للفقراء والتعساء ، أرادوا به أن يخففوا أعباء الحياة والوجود عن المتألمين والمحطمين بالأمانى والآمال المعسولة ، قصدوا بذلك معاونة هذه الجماهير العديدة فى يأسها ، ولم يقصدوا به أبدا ذلك العدد القليل من الأثرياء والمحظوظين . فهو دواء مسكن هائل . هذا هو الدواء الذى أبحث عنه. انا لاأطمع فى مائة الف مارك انى لأقنع ببضعة الوف . ولكن خمسة ماركات عزيزة على . وعلى هذا فلا أظن أتعس خلق الله سيكون أسعدهم بين ملايين المؤملين بربح الثمرة الكبرى

دخلت الدكانة وسألت عن أرخص « لوترية » عند صاحبها

« ارخص لوترية تسوى نصف مارك ولكنها لاتربح غير عشرين الف مارك فقط »

« لابأس حتى ولو قل الربح عن ذلك بكثير ، وإذا شئت ان تعرف الحقيقة فان المسألة عندى ليست مسألة ربح ولكنى راغب فى مسكن » فلم يفهمنى الرجل

والحق انى بقيت عدة ليلات وأيام محظوظا ، تصورت فيها كل أنواع النعيم ، انه دواء فعال مجرب فقد كان أثره فى نفسى عظيما .

استأنفت سيرى ، فبلغت شارع لوتر وكانت الساعة تدق الحادية عشرة فتنبهت إلى نفسى وهناك لحظت لافتة مكتوب عليها « الجمعية الألمانية لتوثيق العلاقات بين الشرق والمانيا » فبقيت واقفا أمامها عشر دقائق أقرأها وأفكر وأعيد قراءتها ، ترى ماذا يكون من أمر هذه الجمعية وكيف لا أعرف عنها شيئا

واستانفت المسير إلى شارع « كليست » ، ومن هناك إلى ميدان « فتنبرج » واخذت مجلسى هناك على أحد المقاعد ثم نهضت واقفاً وسرت فى شارع « بيرويت » فوصلت فى النهاية حيث « اللافتة » . أنا شرقى ومن حقى أن أكشف أغراض هذه الجمعية وقررت اقتحام الدار . دققت الجرس ففتح لى خادم ، وسألنى عمن أريد مقابلته .

« رئيس الجمعية »

« تعنى البروفسور الدكتور شريدر »

فابتسمت قائلا : « نعم البروفسور الدكتور شريدر »

« كان هنا أمس . لايأتى إلا مرتين فى الشهر عند انعقاد مجلس الادارة »

ظللت واقفاً فى مكانى لا أتحرك فسألنى عما إذا كانت لى رغبة أخرى

« ربما استطعت أن أتحدث قليلا إلى السكرتير »

« دكتور جراهام ؟ من أقول له ؟ »

« قل له فقط أحد المصريين يحب أن يراك »

فقادنى إلى غرفة صغيرة بها مائدة عليها عدة صحف قديمة بلغات مختلفة فلاحظت فى الحال أن الصحف العربية غير موجودة بينها . وبعد قليل عاد الخادم وقال لى

« الدكتور جراهام فى انتظارك »

والدكتور جراهام رجل طويل القامة ، نحيل الجسم ، يضع منظارا على عينيه تبدو على وجهه أمارات الذكاء . تقدم يستقبلنى بضع خطوات باسما . وبعد أن قدم كلانا نفسه الآخر ، قدم لى كرسيا بقربه وسيجارة فاعتذرت له فى أدب وأشعلت غليونى . والرجل كما فهمت من حديثه مستشرق يعرف شيئا من العربية .

« لفتت نظرى لافتتكم ، وأنا كصحفى أهتم طبعاً بكل مايختص بالشرق

وصلاته بأوربا ، لذا سمحت لنفسي أن استعلم عن أغراض الجمعية وعلاقاتها والوسائل التي تستخدمها لتحقيق هذه الأغراض ، وقبل كل شيء أحب أن أعرف شيئا عن علاقاتها بمصر »

فأجابني بتؤدة . « وهل تسمح لي قبل كل شيء أن تقول لي أية صحيفة تراسل في مصر ؟ »

كنت قبلا مراسلا لصحيفة « ر » والآن أكتب من وقت لآخر مقالات في صحف ومجلات مختلفة في القاهرة »

« أحب أن أعرف فعلا شيئا أكثر من ذلك . أي نوع من أنواع الكتابة تعالج ؟ وهل لك مؤلفات ؟ »

فذكرت له بعض الكتب فقال : « نحن في حاجة لرجل مثلك . والآن أستطيع أن اجيبك على اسئلتك بتفصيل . »

أنشئت جمعيتنا منذ خمسة أعوام لتنمية العلاقات بين الشرق وألمانيا والحكومة تعاونها ببعض المال وعندنا كذلك عدد كبير من الأعضاء وعلى ذلك فنحن نخدم الفنون والعلوم والسلام بطريقة مباشرة ونحاول تشجيع التجارة والصناعة بطريقة غير مباشرة . ووسائلنا سهلة تبادل الكتب والمجلات بيننا وبين البلاد الشرقية ، والاتصال بالمثقفين وإلقاء محاضرات الخ . ويوجد لنا تقريبا في الشرق فروع في كل بلاده ولنا مراسلون أخصائيون . وللأسف ليس لنا فروع ولا مراسلون في مصر حيث لم نوافق فيها للآن إلى معرفة شخصية نطمئن إليها . ومجلس إدارتنا يتألف من البروفسور الدكتور شريدر والدكتورة برجان وأنا . كم انا آسف لأنك لم تزرنا أمس بدل اليوم . أرجوا أن تعاونا في مجهوداتنا عند عودتك إلى وطنك »

« ماهو عمل مراسليكم ؟ وهل تدفعون لهم اجرا ؟ »

« يكتبون تقارير عن تقدم العلوم والفنون والصناعات فى تلك البلاد ومعظمهم لا يؤجرون على عملهم وحالنا لا تسمح بدفع أجور كبيرة ندفع فى الصحيفة مارکين . ليتك تكتب لنا عن الحالة فى مصر ، وأنه ليسرنا أن تقبل ذلك »

« بكل سرور . غير أنه يلزمنى الاشتراك فى بعض الصحف المصرية »

« تستطيع أن تشتريها مؤقتاً على حسابنا من محطة تسو - إلا أنه يجب عليك أن تزور أولا البرفسور فى داره . سيوافق طبعا . عنوانه شارع فلبر سدورف. وسأدعوه بالتليفون لتحديد موعد للزيارة . . . البروفسور شريدر ينتظرك غدا فى الساعة العاشرة صباحا »

« أشكرك إلى الملتقى ! »

وكنت عند الدكتور شريدر فى الساعة العاشرة وعشر دقائق . وهو رجل يتراوح عمره بين الستين والسبعين ، قصير القامة ، نحيل الجسد كليل البصر ، كلفه طول الدرس والتدقيق فى الحواشى وفك الخطوط نور باصرتيه ، أستاذ فى فقه اللغة ، استقبلنى فى مكتبه وما أدراك ما مكتبه ! حسبك من وصفه أن حيطانه مغطاة من الأرض إلى السقف بمختلف الكتب والمجلدات . وفى وسطه موائد ممدودة محملة بالاسفار وبينها سلم ، وفى احدى الزوايا مكتب وكرسيان .

« أرجو معذرتى للتأخير بضع دقائق . ولا تظن التأخير فى طبيعتنا نحن الشرقيين كما يقول عنا الأربيون فقد أخطأت رقم الدار واضطررت للبحث فى كل الدور القريبة ، حتى انى دخلت عند جاركم الدكتور شريتر »

فقهقه ضاحكا . « لا أفهم كيف تزل هذه الزلة . . إن اسمى بالدال وعجيب أن رجلا مثلك مثقف قرأ جيته يقع فى مثل هذا الخطأ . . كأجنبى لا بأس بلغتك الألمانية »

أخذ يتحدث عن أصل اسمه واشتقاقاته ، وقد استغرق حديثه اللغوى ساعة كاملة . . فأصابنى التعب والملل فقلت له : « لابد ان نتقابل مرة أخرى »

فقال لى : «عندك يومان تختار منهما الموعد الذى يناسبك: يوم الاثنين المقبل أو الثلاثاء فى الساعة العاشرة واكتب لى تذكرة قبل قدومك . »

ولما خرجت من عنده لم أستطع أن أكوّن فكرة عن الرجل . وفى يوم الأحد كتبت له بطاقة لينتظرنى يوم الثلاثاء فى الموعد المحدد ، راجعت التذكرة عدة مرات حتى لايجد فيها غلطة فقد كنت أخشى أن يحاضرنى فى الغلطة طول الوقت وأخرج دون فائدة . وأعطيتها لأحد الألمان ليراجعها

وفى الموعد المحدد ذهبت إلى الدكتور فاستقبلنى استقبالا وديا وكانت البطاقة فى يده وقال لى « لابأس بلغتك كأجنبى . قل لى أيرجع نسبك إلى أسبانيا ؟ لقد تراهنت أمس معى زوجى . هى تقول انك عربى وبهذا المناسبة امرأتى فتية لا تعرف شيئا فى فقه اللغة ، هى موسيقية موهوبة ، ومن أحسن من يضرب على البيانو ، وأنا استنتجت أنك أسبانى من ال التى فى اسمك »

« كل ما أعرفه أنى مصرى . وربما نشأت عائلتى فى بلاد العرب »

« ولكن ال هذه فى اللغة الاسبانية . . . »

وحاضرنى طول الوقت فى ال . . . وأخذ التعب يبدو عليه وخفت أن يكون نصيبى فى هذه المرة نصيبى فى المرة السابقة . فلعنت فى السر اسمى ولعنت اللغة العربية والاسبانية وعلى الأخص ال وانتهزت فرصة صمته لحظة ليأخذ نفسه وقلت :

« إننى لأعجب لاتساع معارفك ولكنى لايحق لى أن أعجب من رجل له مثل مكتبتك »

فابتسم لمداهنتى : « هذه الغرفة إحدى ثلاث غرف تكون مكتبتى »

وخوفا من أن يمسك الاستاذ بكلمة مكتبة أسرعت فى التحدث بشأن مسألتى .

فقال: « نعم تستطيع أن تبدأ بالعمل ، واحضره إلىّ فى جلسة المجلس المقبلة ، وبهذه المناسبة لاتنس أن تذكرنى أن نسأل زميلى الدكتور جراهام والدكتورة برجمان عن ال . فنحن لم نتفق فيما بيننا للآن

« ويل لى ولاسمى »

كتبت تقريراً من الصحف العربية فى أسبوع يقع فى خمس صفحات وقلت فى نفسى هذا معناه أنى أكسب عشرة ماركات فقط فى الاسبوع أو بعبارة أخرى ٤٠ مارك فى الشهر . هذا يستحيل ، فتوسعت فى الكتابة فجعلتها عشر صفحات . وذلك أيضا قليل . وعلى ذلك جلست من جديد وعملت له مقدمة وخاتمة وعلقت بتطويل على كل نقطة وبذلك وقع تقريرى فى عشرين صفحة .

ثم ضحكت وقلت بارك الله فى معلم الأنشاء العربى فقد كان يعطى أحسن النمر للطلبة الذين يكتبون أطول الموضوعات ، فكم من مرة أعاد لى هذا المعلم العظيم كراستى قائلا : « أرجو أن تزيد بضع صفحات أخرى على الموضوع » ونصحنى فى ذلك الوقت أن اشترى كتابه فى الأنشاء ففيه أجد مقدمات وعبارات تصلح لكل الأحوال . وقد اشتريته ولا يزال فى حوزتى ولكنى تركته للأسف فى مصر وكم أنا آسف لعدم استطاعتى الانتفاع به الآن .

وحضرت فى يوم الجلسة وقدمونى للدكتورة برجمان وهى سيدة عجوز متوسطة القامة ذات شعر أشيب ولون ناضر ، أما عيناها فكانتا تضربان تارة إلى الزرقة وتارة إلى السمرة ، شديدة الحياء أرملة طبيب سويدى مشهور ، وأم فتاة جميلة تعنى بها كل العناية .

وكنت قد عقدت النية على أن لا أذكر الأستاذ « بأل » ولكن العالم

المتحمس كان قد تحدث مع زملائه بشأنها . وعندما رآنى أقبل على وشد على يدى والتفت إلى رفيقيه قائلا « صديقنا هذا لا يعرف من أين نشأ ، ولا يستطيع كذلك تفسير اسمه . أنا أقول إن عائلته نشأت فى أسبانيا لأن الأسبانيين يستخدمون « ال » فى أسمائهم . وتدعى امرأتى أن منشأه جزيرة العرب » ثم زرّ على عينيه وضحك قائلا :

« المصرى عاجز عن إعطائنا بيانات عن ذلك فماذا تريان أنتما ؟ »

قال الدكتور جراهام « مبلغ علمى أن ال أداة تعريف عند العرب وأرجح أن الاسبان قد أخذوها عنهم » .

فأشار إليه الأستاذ بيده « دعنا من ترجيحاتك . أنت مستشرق . متعصب للعربية . ما رأيك أنت أيتها الدكتورة ؟ أنت عالمة مثلى فى فقه اللغة وعندك الرأى الصواب » .

مسحت الدكتورة بيدها على شعرها وقالت « أذكر أنى قرأت منذ ٣٥ عاما مقالا فى إحدى المجلات العلمية عن ال وأعتقد أن شيئا منه لا يزال عالقا بذهنى وأن ال العربية تأخذ الحركة التى قبلها على عكس ال الاسبانية فانها لا تتغير وعلينا أن نسأل السيد إذا كانت ال فى اسمه تتغير أو لا » وابتسمت عيناها ابتسامة المودة نحوى .

وعجبت للجماعة التى شرحت اسمى بينها وأنا على قيد الحياة .

« عندكم حق اسمى اسم بغيض ، وكنت أفكر فى تغييره وسأستخدم مؤقتا اسمى الأول . والآن أحب أن أعرف رأيكم فى تقريرى » .

قال الأستاذ مبتسما « لا ، لا ، اسمك جميل ، ولكن فقهاء اللغة يهتمون بفحص الكلمات سواء أكانت محلية أم أجنبية ، وردها إلى أصولها ، وقد توصلنا بالفعل إلى شىء من هذه المناقشات ـ تقريرك عظيم ألا أنه كان مختصراً ـ حتى

أنت لم تدر شيئا مفصلا عن بعض النقط ـ انظر هنا » وأراني بعض علامات بالقلم الأحمر ، فضحكت بين كفى .

« سيكتب الدكتور جراهام معك عقدا يتجدد كل شهر لأن حالتنا غير مستقرة ـ أنا أعتقد أنه من الضرورى أن نلتقى جميعا فى إحدى الليالى لنخرج بنتيجة قاطعة شافية بالنسبة لال » .

غادرت البناء فرحا وفى الجيب المبلغ الذى قبضته من الخزانة .

وقد لقيت البروفسور شريدر أربع مرات أخرى فى داره وفى كل مرة كان الحديث يدور بيننا طول الوقت على كلمة أو مقطع منها ودعتنى كذلك الدكتورة برجمان مرتين إلى دارها وحدثتنى عن أسفارها المختلفة ـ ولم يدر فى حديثها قط شىء عن فقه اللغة . وكان الدكتور جراهام هو الرجل الوحيد الذى ألتقى به فى المكتب كل مرة ـ وهو أعزب يقضى وقته فيه .

وهكذا ابتسم لى الحظ مرة أخرى . ولاعجب فعجلة الزمن تلف على الدوام من أسفل إلى أعلى كما تلف من أعلى إلى أسفل وهى تلف بى الآن إلى أعلى

ومر شهر فبراير ومارس على أحسن حال وحل موعد سفر الآنسة ما كسونج إلى فرنسا ولأمر ما أجلت الأمريكية سفرها شهرا آخر

وفى الثلث الأول من شهر ابريل ، قصدت الجمعية لأقدم تقريرى الأسبوعى فأخذه منى الدكتور جراهام وهز رأسه هزة الأسف وقال : « نحن مضطرون لسوء الحال أن نغلق أبواب جمعيتنا » ومد الىّ يده بظرف مقفل وقال لى : « هذه مكافأة صغيرة لك على عملك » فلم أستطع النظر إليه . فقادنى من يدى إلى الخزانة وأمر الموظفة أن تدفع لى أجر تقريرى الأخير فنقدتنى أربعين ماركا لم آبه لها وخرجت من عنده لا أدرى أين أضع قدمى

فتحت الظرف فى الدار فوجدت به مائة مارك وهذا المبلغ عدا الأربعين

ماركا وضعتها على مكتبي دون عناية وضممت اليها ماتبقى معى من المال فكان مجموعة ٢٥٣ ماركا وبعد فترة صمت ، لطمت رأسى وصدغى بكفى عدة مرات وقلت : « لاتزال أمامى فرص فى الحياة لم أعالجها فلا أفكر »

واستولت على رأسى فكرة العودة إلى الوطن عدة ليال وأذكى الفكرة فى نفسى ان الحالة الاقتصادية فى المانيا تسوء يوما بعد يوم كما كان قرب سفر الآنسة ما كسونج أمرا محققا وقضيت ليلة على أحر من الجمر أفكر وأنا لا أدرى أأقطع بالعودة إلى مصر أم بالبقاء فى برلين ؟

ورأت الآنسة ما كسونج ما حل بى فعرضت على أن أرحل معها إلى باريس وأجرب حظى هناك وأغرتنى بكل المغريات فرفضت فأبرقت إلى امريكا تطلب مدّ مدة إقامتها فى برلين نصف عام آخر للتمكّن من اللغة الألمانية ـ فأجيبت إلى طلبها .

انتصار الجهل

ليس من طبعى أن أنتظر وقوع معجزة من السماء ، لأنى أعتقد أن زمن المعجزات للأسف قد انقضى . فقد قسا أبى على فى تربيتى باليد واللسان حتى أنى لازلت أسمع صوت أمى يرن فى أذنى .

« اترك الولد بالله عليك ! »

« أريد منه أن يتعلم أن يقف على قدميه . من يدرى ماسيكون عليه حظه فى الحياة

« يالله ! لقد كسرت أصبعه ماذا تريد منه ؟ »

« أريد منه أن لاينحنى له عود فى المستقبل . أريد منه أن يسيّر القدر ،

ولا يخضع له . سيذكّره أصبعه فيما بعد بكلماتى فيعرف كيف يعتمد على نفسه . »

ومنذ ذلك التاريخ تعلّمت أن أغلق على نفسى باب غرفتى كلما وقعت فى ازمة من الأزمات ثم أفكر فى هدوء وأقضى فى الحال بما ارتأيت .

فجلست نفسى طول ضحى اليوم التالى وعالجت الأمر من جميع نواحيه وقررت بعد فشلى فى احتراف الكتابة والتجارة أن احترف مهنة يدوية وقديما قالوا « صناعة فى اليد أمان من الفقر » مهما يكن نوع هذه الصناعة . وقررت كذلك أن أختلط بالناس فى الداخل وأعيد اتصالاتى بالخارج فربما استطعت الإفادة منهم برأى أو مشورة ، إذ كيف يتيسر لهم أن يعلموا شيئا عن سوء حالى طالما أنا بعيد عنهم مقاطعا لهم .

فأخذت على غير عادتى أتحدث إلى صاحبة الدار ، فقدمتنى إلى جارى فى السكن الدكتور شميجلسكى فتى بولندى أتم دراسته حديثا . وأكثرت من التردد على الأمريكية كذلك ، ثم كتبت فى الحال ثلاثة كتب إلى ثلاثة من اصدقائى فى ثلاثة بلاد مختلفة ، فى القاهرة ولندن وباريس .

وكنت فى كل مرة أزور فيها الآنسة مكسونج أمر على مدرسة عرض الأفلام فكنت أقف فترة أمام لوحة المدرسة وأقرأ الكتابة المسطورة عليها من جديد رغم معرفتى بها . وذات يوم صعدت فى السلم عن غير قصد ودخلت المكتب وطلبت صورة من برنامج التعليم فقادتنى فتاة إلى غرفة الاستقبال وقالت لى « لحظة » واختفت وعادت ومعها سيد تبدو عليه مخايل الذكاء يغلب على الظن أنه فى منتصف العقد الرابع فقدم لى نسخة من برنامج المدرسة ودعانى لمشاهدة الفصول . فقادنى إلى المعمل ثم إلى صالة المحاضرات فعرفة بها ما كينتان لادارة

الفلم . وهنا ألقى علىّ محاضرة طويلة عن مدرسته ثم سألنى عن رغبتى فارتبكت ، فاستأنف الكلام .

« ربما وجدت أن مدة الدراسة طويلة . ولكن ثلاثة شهور لدراسة كل هذه العلوم ليست شيئا يذكر . أرجو أن تفتح ص ٥ فهناك ستجد العلوم الأساسية الثلاثة التى لا بد للطالب من الامتحان فيها » ففتحت الصفحة فوقع نظرى على الآتى : —

١ — الكهرباء الصناعية .. التيارات . الدينمو

٢ — بناء الماكينة — استخدامها الخ .

٣ — عرض الأفلام ، لفها ، ولصقها . . . الخ .

فنظرت إلى عدد العلوم المطلوب دراستها مندهشا ولم أنبس ببنت شفة واستأنف الحديث « وعدا هذا — فلدينا فصل ينتهى فى ١٥ يوما يدرس فيه الطالب يوميا ثلاث ساعات » ففعلت هذه الكلمات فى نفسى فعل الكهرباء

« أفى الامكان أيها السيد الدكتور أن يتعلم الطالب كل هذه العلوم فى مثل هذه المدة القصيرة » .

فابتسم قائلا « نعم أن لنا طبعا طريقتنا وأنا أنصحك ان تدخل هذا الفصل النهارى لأن عدد المشتركين فيه محدود فتستطيع الاستفادة منه كثيرا . »

« هل تسمح لى أن أسألك عن الأجر الذى يتناوله عارض الفلم فى ألمانيا »

« فلنقل من ٣٠٠ — ٤٠٠ مارك فى الشهر »

« هل يوجد أيضا بينهم عمال عاطلون ؟ »

« لله الحمد — فنسبة العاطلين فى هذه الطبقة صغيرة إذا قيست بالمهن الأخرى »

« وماهى مصاريف الدراسة ؟ »

« ٨٠ ماركا . وتبتدىء الدراسة فى أوائل مايو »

« ٨٠ ماركا ؟ حسنا ! سأفكر فى الأمر . أشكرك »

وأعطانى بضع رسائل مطبوعة وشيعنى إلى الباب .

وقصدت الدار بعد هذه المقابلة وقد امحت من رأسى طول الطريق كل الأفكار إلا فكرة واحدة ، فكرة تعلم عرض الفلم حتى بلغ بى الوهم أنى رأيت نفسى واقفا فى آخـــر الشهر على الخزانة أقبض ٣٠٠ مارك وأضعها فى جيبى وتخيلتنى أدخل مطعم كمبنسكى مبتسما آكل وأشرب وأنفق عن سعة وكرم .

وقطع علىّ تفكيرى ، ونبهنى من حلمى صوت الدكتور شميجلسكى عند عتبة الدار « أين كنت طول اليوم ؟ لقد سأل عنك شخص أظنه مواطنا لك . وقد وعد بالحضور غدا ـ وعدا ذلك فلك خطاب عند صاحبة الدار هل استلمته ؟ »

« لا ، أشكرك »

وجريت أقفز درجات السلم درجتين ثلاث درجات ـ وانقضضت على الكتاب انقضاض الغراب « انجلترا جاوبت ! » مزقت الغلاف وقطعت معه جزءا من الكتاب .

« آسفون لما آلت اليه حالك ، هكذا كان نصيب عظماء الرجال أنت رجل عظيم بلاشك ، كافح حتى النهاية ، النصر مؤكد لك . . . »

« رجل عظيم ها ! ها ! ها ! ـ أحدث لقب ـ أفى الطاقة استخدام هـــذا اللقب ؟ أنا لا أطمع فى شهرة . أنا أريد عملا فقط . مثل هذه التهربات كنت فى الواقع أنتظرها . ولكننى سأشق طريقى بنفسى . ولقد وجدت الطريق بالفعل »

وفى الصباح دقت صاحبة الدار على الباب : « سيد يريد أن يتحدث إليك »

« أرجو أن يتفضل . »

فدخل رجل عملاق أسمر اللون يتكلم العربية بلهجة أهل المغرب .

« السلام عليكم ورحمة الله ! اسمى نصر بن ابراهيم من الجزائر . »

« لى الشرف ، تفضل واجلس ياسيد نصر »

« كيف حالك ؟ »

« الحمد الله بخير ، أشكرك »

فترة صمت .

ثم يبدأ الحديث : « أعطانى بعضهم عنوانك وقال لى أنك من مصر . وأنك عاطل لاتجد عملا وعندى فرقة تمثيل تشتغل فى الصيف فى لونا بارك ، وفى الشتاء تتنقل فى المديريات وفى الممالك الأخرى ، وظننت أنى قد أستطيع مساعدتك . فأنت أيضا من الشرق مثلنا ، ومسلم غريب بين هؤلاء الكفار . »

فنهضت من كرسى واقفا من شدة الفرح « أشكرك ، إنك تصنع بذلك جميلا . »

فترة صمت طويلة ، يحدق نصر بن ابراهيم فيها إلى حذائه ، وينبش بعصاه فى البساط دون أن يرفع نظره الى ، ثم يستأنف الحديث مستفهما .

« أتأكل نارا ؟ »

« ماذا ! ؟ »

« وماذا تقول فى الزجاج ؟ ! »

« نار ! ! ! ـ زجاج ! ! ! »

« حسبت أنك تستطيع ، ذلك فثالث كل ثلاثه عندنا يعرف هذا . وفى هذه الحالة كنت أستطيع أن اقدم لك عملا فى الحال . »

« آسف ياسيد نصر بن ابراهيم . لست حاويا . أنا صحفى وأديب »

« ها ! ها ! ها ! ولكنك لاتستطيع فى هذه الايام أن تكسب قرشا بصحافتك وأدبك ، وأنت بدون شك فقير . »

صدق الرجل ، صحيح كل ماقال ، وأنا آسف لأنى لم أتعلم أكل النار أو الزجاج .

« أأحتاج إلى زمن طويل لتعلم هذه المهنة الجديدة ؟ »

فابتسم قائلا « فى سنك لن يكون . كنت أحب من كل قلبي مساعدتك ، ولكنى لا حاجة لى بك . »

« ولكن ربما كان لديك عمل آخر لى ، ففى استطاعتى مثلا أن أجلس على الخزانة . »

فضرب الرجل على جيب صداره ضاحكا « خزانة ! هذه خزانتى ، ليس لى ثقة فى إنسان ، سلام عليكم . سنتقابل مرة أخرى »

وبقيت طول اليوم أتحدث إلى نفسى بصوت عال . طالما لا أستطيع أكل النار والزجاج ، فلا حاجة لهم بى . فذهبت إلى الدكتور شميجلسكى وزرت الآنسة ماكسونج وستيلكا وزوجه وسألتهم إذا كانوا يأكلون الزجاج أو النار فضحكوا جميعهم منى . ترى لماذا لم يعلمنى أبى ذلك . نصر بن ابراهيم يقول أن ثالث ثلاثة فى بلاده يعرفه . لقد كان فى طاقة أبى أن يجعل منى آكل نار أو راقصا على الحبل أو راكب خيل — سامحه الله — لم يكن فى طاقته أن يتنبأ بما عساه أن يكون . ونظرت إلى خنصرى وقلت ، لا يحق لى أن أستسلم للقضاء ، علىّ أن أعتمد على نفسى .

وبعد أيام قلائل جاءنى كتاب من باريس — آهها — باريس تجاوب :

« كتبنا إلى بعض أصدقائنا فى برلين بشأنك فصبرا — كافح » وختم الكتاب بالعبارة الآتية : كنا نتمنى من صميم قلبنا أن نتمكن من تقديم مساعدة مادية لصديق مثلك ولكنا أنفسنا واقعون فى مصاعب مالية تجعلنا مضطرين للتفكير فيها أولا »

أنا لم أطلب منهم مساعدة مالية ، ولكن ربما كتبوا هذا من باب المجاملة ، على أية حال فإن مركزى يفضل مركز هذا الرجل المشهور . فهو مدين ، أما أنا فلا يدينى أحد بمليم . بل لا زلت أملك مالا ، ولا يزال هناك رجاء فقد كتب

إلى بعض أصدقائه فى برلين بشأنى اصبر وصابر ... هذا واجبى على أية حال

أما القاهرة فلم تعن بالرد علىّ .

مهدور الدم

أعود إلى الوطن ؟ أبقى فى برلين مدة أخرى ؟ أتعلم الفلم ؟ لا أتعلمه؟ إذا كان لكل قصة نهاية ، ولكل نهاية قصة ، فإن هذا لا ينطبق على حالى . فالظاهر أن قصتى لا نهاية لها . فالمتاعب التى لقيتها فى مصر قبل ارتحالى عنها ، والتى تبعتنى فى برلين يظهر أنها ليست بالكافية . فقد سدت جميع الأبواب أمامى ، وأبى النحس الا أن يلازمنى ، وعلى الرغم من ذلك يطالبنى الناس بالصبر ، ويأمرنى الدين أن أحيا . إن من الهين على صديق يعيش فى نعيم ، ممن لا يستطيعون أن يلبسوا معاطفهم أو أحذيتهم دون مساعدة خادم ، أن يطلب إلى أن أكافح . ومن الهين على مثر فى مصر ممن لا تشعر معدهم بالجوع ، لا ولا مس برد أوربا جلودهم أن يأمرنى بالصبر على امتحان الله لى ، سمعنا وأطعنا . ولكنكم لم تقولوا أى ضرب من الكفاح تعنون ؟ كفاح فى صحراء ، وأى صبر هذا الذى تتمشدقون به ؟ أصبر بلا نهاية ؟ لم أطلب إلى اولئك الناس الذين طلبوا إلى ان أصبر وأكافح ان يحتملوا عنى بعض اعباء الحياة ، ولو ان واجب الصداقة وأوامر الدين الحنيف تطلب ذلك ، غير انى رجوت منهم ان يساعدونى برأيهم فى وحشتى . فيدلونى على نوع من السلاح الذى يجب ان أحمله ، ويعيّنوا لى العدو الذى أقاتله . فأنّى لرجل له معدة كمعدهم تطلب الطعام فى مواعيد منظمة ، وله جلد كجلودهم لا بد له من حماية ، أن يريدوه على الصبر . لا ، لا ، سنسمع منهم ، ولن نطيعهم . كل هذا سخف ! هؤلاء الناس انما يهزأون منى . ان كان

صبرى الفنى قد نضب ، ولم يبق فى قوس التجلد منزع ، ولا فى رقعته مرقع . فلأترك برلين للبرلينيين وللأجانب من أكلة النار والزجاج . أنا أطلب من برلين المستحيل ، ولكن إلى اين المفر ؟ إلى آكلى لحوم البشر ؟ إلى نيام نيام ؟ إلى مملكة البابا ؟ . أنا لا أطلب إلا عملا ، أحصل من ورائه على سقف فوق راسى وخبز ، وكتاب . أصاحب مطامع انا ؟ لا فلم يبق امامى إلا الرحيل او انتظار وقوع معجزة .

اما انتظار وقوع معجزة فلا ، فهذا ليس من طبعى ، إلى الآنسة ما كسونج لأدرس معها المسألة وسنجد حلا . وفى اليوم التالى لقيت الأمريكية وقتلت الموضوع معها بحثا من جميع نواحيه ، واتفق رأينا على أن ترك المانيا الآن ضرب من الحماقة ، فعدد العاطلين فى كل مكان آخذ فى الازدياد ، فوق ذلك ساجد نفسى فى أرض جديدة ، صفر اليدين ، أجهل لغتها ، غريبا بين أهلها . وأن رحلة كهذه هى الانتحار بعينه . وإذا شاء الإنسان أن ينتحر فعليه ان يتخير أخف أنواع الانتحار . أما فى برلين فحالى يختلف عن ذلك فأنا أعرف المدينة وأجيد لغتها إلى حد ما ، ولى فيها بعض معارف ، ولا يزال بها أبواب لم أقرعها بعد . . . ثم أمامى مدرسة الفلم ، وفى استطاعتى أن ألصق اعلانا عن دروس خصوصية على سبورة الجامعة ، وأن أكتب كتابا ، لا تزال توجد عدة احتمالات لم أعالجها . ثم أظهرت استعدادها لمشاركتى متاعبى بل مساعدتى إلى آخر نفس .

« لا ، لا أريد أن أبقى يوما فى برلين ، وإذا كنت صادقة فى ودك لى ، لا تثنينى لحظة عن الارتحال ، وفكرى معى إلى أى بلد أقصد » .

وانقضى عصر اليوم فى أخذ ورد وأخيرا اتفقنا على أن أتريث بضعة أيام حتى نتدبر الأمر قبل الأقدام

وانطلقت من دارها مسرعا فى الطريق دون غاية حتى أنهكنى السير وأخيراً خاطبت نفسى .

« ليس الغريب فى بلد كبير أن يطمع فى يد تجفف دموعه ، أو صوت رقيق يخفف عنه آلامه ، أو قلب يشاركه دقات قلبه . أنا غريب فى برلين ، غريب فى لغتى ، غريب فى عاداتى ، غريب فى ثقافتى ، وغريب فى دينى ، ليس لدىّ أحد أستطيع أن أعتمد عليه ، وليس لى غير غرفة ألجأ إليها ، وأغلق بابها علىّ ، ومكتب أجلس اليه . أنا منهوك ، سأرقد الليلة على الأريكة ، وأدع فلم حياتى الماضية والحاضرة يمر أمامى لأتبين حقيقة موقفى سامح الله برلين ، إذا كانت برلين قاسية علىّ ، فأنا لست برلينيا ، وليس لى حقوق على المدينة . وعلى الرغم من ذلك فسأظل أحب برلين وأحترمها . ألم أعش فى أيامى الأخيرة فى وطنى بين أصدقائى ومعارفى غريبا ، ومع ذلك فلم يعض البغض والحسد قلبى نحو مواطنى ، ولو أن ظلم الأهل والصحب أمر وآلم على النفس من ظلم الغريب .

وصلت غرفتى ، وعالجت أن أخلع ثيابى فرأيتنى فى المرآة ولم أكن قد نظرت إلى صورتى فيها منذ أيام فأنكرت صورتى . وجه متغير ذاك الذى أراه فى المرآة ، قد اصفرت بشرته ، وشابت سوالفه ، ودب البياض فى رأسه ، هيكل فى ثياب بالية . أهذا هو أنا ؟ . لاشك ، فهذه هى ثيابى التى جئت بها من مصر ، يالله فى سمائه لست غريبا فى برلين ومصر ، بل أنا غريب فى ثيابى

رقدت على الأريكة ، وبقيت مدة من الزمن لا أتحرك ، وأخيرا أحسست برغبتى القوية فى النوم ، فانتقلت إلى فراشى ونمت نوماً عميقا لم أتذوقه منذ زمن طويل .

وفى صباح اليوم التالى ورد إلىّ كتاب من مصر ، فعجبت لخفته ووزنته فى يدى : « لعل المرسل نسى أن يضع الكتاب فى الظرف . فتحته فوجدت به

قصاصة من جريدة الأهرام الصادرة فى منتصف ذلك الشهر ليس عليها أى تعليق فقرأت فيها نص المرسوم الملكى الذى صدر بتجريدى من جنسيتى فلم أحس فى أول الأمر بأى ألم ، أو أية مضايقة بالمرة ، بل هزأت من جبن المرسل الذى لم يخاطر حتى بكتابة اسمه ، ومرت بى ساعة كاملة لم يتغير فيها مزاجى . ترى كانت كأس أحزانى مترعة حتى أنها لم تتسع لمثل هذا الخبر المؤلم ؟ أو كانت الضربة قوية حتى أنها سلبتنى إحساسى . على أية حال تبين لى فيما بعد أن هذا المرسوم كان كالسهم الذى أصاب قلبى . وبقى ساكنا به ، وأنى عاجز عن انتزاعه .

وقصدت فى المساء صديقتى فى الموعد المضروب وبادرتها قائلا « لقد هدر دمى . الآن يستطيع كل إنسان أن يطاردنى . كأنى كنت أحس هذا الاحساس منذ زمن »

فاهتز بدن السيدة ، وماتت الكلمات على شفتيها .

وعدت إلى دارى وحدثت جارى الدكتور عن خبرى فأخذ يهدئ من ثورتى .

« لا تخف ولا تحزن ، وستجد لك مخرجا قريبا والآن ستحصر فكرك فى العمل ، ولا بد أنك واجده ، إذ لم يعد فكرك موزعا بين السفر والأقامة . فسيأبى أى قنصل التأشير لك بالسفر بعد تجريدك من جنسيتك ، وفى براين يوجد ألوف مثلك ممن لا جنسية لهم من مختلف بلاد الله يكسبون عيشهم ، فلم لا تبحث عن عمل مستديم ؟

وبهذه المناسبة لقد سأل عنك اليوم السيد . شتين ألك معرفة به وثيقة ؟ »

« ومن عسى أن يكون السيد شتين ؟ »

« السيد شتين ! »

قلت فى حده : « وهل تظن فى الطاقة أن أجد عملا ؟ »

فردّ على فى أدب ورقة « بدون شك . وأنا على استعداد أن أشاطرك آخر مارك معى ، وأن أبذل كل ما أستطيعه من أجلك . قل أية صلة لك بالسيد شتين

أعنى طبعا الفنان شتين الشهير »

« لا أعرف إلا إسمه من الصحف والمعارض ، ولم أره قط . أهو الذى سأل عنى ، وماذا قال ؟ »

« إنه ينتظر منك تليفونا غداً . »

خرجت من عند الدكتور شميجلسكى ثائراً أحدث نفسى « ليت الذين اتهمونى وحاكمونى فى غيابى سمعوا دفاعى » وأحسست ساعة بكراهية نحو الناس جميعاً . والحق أقول أن هذه الساعة نقطة عار فى صحيفتى كم وددت لو لم تكن

أردت أن أتحقق صحة هذا النبأ وأعرف الأسباب التى بنى عليها هـــذا المرسوم فقصدت القنصلية المصرية ، فعلمت أنهم لايدرون شيئا من الأمر أكثر مما قرأته فى الأهرام

قلت: «إذاً لى رجاء عندكم . أن تكتبوا لأولى الأمر أنى على استعداد لتسليم نفسى ، اذا كان هناك أى اتهام ضدى »

ولم يمض يومان على زيارتى للقنصلية المصرية حتى دق على بابى أحد رجال البوليس الألمانى ، وطلب منى تسليم جواز سفرى المصرى وأعطانى وصلا بالاستلام .

وقصدت فى اليوم التالى محافظة برلين لأسأل عن السبب فقيل أنها مجرد أجراءات تتخذ من وقت لآخر مع الأجانب لفحص جوازاتهم

وأخذت أتردد على المحافظة للسؤال عما تم فى جواز سفرى . وأخيرا قال لى الموظف المختص :

« لقد سحبت حكومتك جنسيتك وطلبت منا تسليم جواز سفرك وأنت من

الآن لاجنسية لك . وعليك أن تحضر لنا صورتين لنعطيك تذكرة شخصية كالتي يحملها من لاجنسية له . تجددها من هنا مرة كل عام وتؤشر عليها كذلك من قلم الجوازات الألماني مرة كل عام للتصريح لك بالأقامة في بلاد الرايش.»

واحتججت على ذلك . فلم يفد احتجاجي ، فرضخت للأمر الواقع . ومنذ ذلك الحين وأنا أحمل تذكرة التشرد هذه ، أو تذكرة الدفن كما كنت أسميها

في مقعد الدراسة

عالجت الرحيل من ألمانيا إلى أي بلد في أوربا فأبى عليّ ذلك قناصل الدول جميعا . فلم يبق إلا الاعتماد على النفس ومتابعة الكفاح في ألمانيا حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .

وقصدت مدرسة الفلم في الاسبوع الأول من شهر مايو وكان لايزال معي من النقود مايكفيني لدفع مصاريف المدرسة والحياة شهرين مع الاقتصاد وطلبت مقابلة المدير .

«لقد فكرت في الأمر ورأيت ان أزور الفصل النهاري . ولكني للأسف لا أستطيع دفع ثمانين ماركا . وأقصى ما أستطيع دفعه للأسف خمسون ماركا . أنا أعلم أن ثمانين ماركا لمثل هذا الفصل ليست بالشيء الكثير ولكني للأسف في حالة عجز لأن عملتنا قد انحطت كثيرا . وربما استطعت أن أقدم لك خدمة تذكر في المستقبل »

« آسف ليس لدينا مساومة . وإذا شئت أريتك ايصالات الطلبة الآخرين»

« نعم أنا مصدقك . لعلك تستطيع عمل استثناء معي »

فصمت لحظة وأمسك ورقة بيده وأخذ يحسب ثم رفع رأسه وقال .

« سأصنع معك جميلا ، وأقبلك عندى نظير ستين ماركا . وهذه هى المرة الأولى فى حياة مدرستى . لاتقل شيئا عن ذلك لأحد . على أن تدفع فى الحسال المبلغ. فالفصل الدراسى يبتدىء غدا »

« أشكرك هذه هى الستون ماركا »

ورقصت من الفرح على السلم وزرت الآنسة ما كسونج فى المساء واحتفلنا بهذا النصر واخذنا طول الوقت نضع التصميمات المستقبل السعيد وكم كانت صبورا معى فلم تقاطعنى قط بل كانت تظهر اهتمامها وموافقتها بأيماءة من رأسها أو كلمة تشجيع .

وفى الساعة التاسعة من صباح اليوم التالى ، كنت أجلس بين ثلاثة عمال فى صالة المحاضرات ننتظر المعلم وجاء بعد ساعة وقدم نفسه لنا وكان رجلا قصير القامة ذابل الوجه ، أخفت ياقة قميصه ياقة سترته وتطاولت عليها كثيرا كما كانت سترته عتيقة شديدة اللمعان وكانت أصابعه شديدة الاصفرار مما يدل دلالة واضحة على انه مدخن كبير . وانه رق هذه العادة فقد كانت أولى كلماته لنا « تستطيعون أن تدخنوا فى اثناء الدرس » .

أعطى لنا ورقة كتبنا عليها اسماءنا وعناوناتنا وقربها من عينيه الضعيفتين وقرأ الأسماء بصوت عال ولما جاء إلى اسمى قال :

« فلنبدأ بامتحان المصرى »

« هل يوجد عندكم دور للسينما فى مصر ؟ »

« نعم »

« طبعا تريد أن تفتح دارا للسينما ؟ »

« نعم ! »

« أأستطيع أن أجد لى عملا عندكم فى مصر ؟ »

ففزعت عند سماعى هذه الكلمات وقلت فى نفسى :

« كيف أفكر فى ايجاد عمل لى فى ألمانيا إذا كان المعلم يبحث عن عمل له فى مصر . » ووقف الجواب فى حلقى فرأى حيرتى وارتباكى فقال ليخلصنى مما أنا فيه : « سنتكلم فى الموضوع فى فرصة أخرى ـ أتعرف الحساب . »

« أى نعم ! »

« حسنا ـ إذن سيسهل كل شىء » ثم أخذ يسأل الآخرين .

ورآنى لا أدخن فى أثناء الدرس فقدم لى سيجارة فقلت له :

« أشكرك ياسيدى المعلم أنا أدخن الغليون »

تستطيع أن تدخنه هنا أيضا . وسأحضر معى غليونى غـــدا لأجرب دخانك » .

* * *

وفى اليوم السادس من شهر مايو جاءنى كتاب صادر من برلين حاولت معرفة صاحبه من الخط الخارجى فلم أفلح . وكان الكتاب مختصر العبارة مكتوبا بخط جميل ، وهذا نصه : « صديقك فى باريس كتب لنا بشأنك إنه ليسرنى أن تزورنى فى دارى بعد غد فى الساعة الخامسة لنشرب الشاى معا ـ تحياتى »

المخلص « شتين »

لقد صدقت باريس وعدها ـ آه هذا هو الرسام الشهير « شتين » الذى طلبنى فى التليفون وأهملت الاتصال به . لقد قرأت فى الصحف عن معارضه فى لندن وباريس . هذا الرجل لاشك يستطيع أن يساعدنى .

وذهبت إلى ستديو شتين فى الموعد المحدود وهو قائم فى غرب المدينة فى بيت هادىء تحوطه حديقة غناء . يمر الداخل بدهليز قصير . فيدخل منه إلى غرفة

فسيحة مغطاة حيطانها بمختلف الصور . وتفصل ستارة سميكة من الحرير بين الأستديو وبين غرفة الاستقبال البديعة الممتعة . يتألف أثاثها من أريكة وكراسى واطئة وما ئدتين مستديرتين وتتحلى حيطانها كذلك بالصور الجميلة . أجلسنى الرسام إلى مكتبه على كرسى مزخرف وطلب إلى أن أكتب اسمى فى دفتر زواره المشهورين من المعجبين بفنه .

شتين رجل جميل الطلعة يناهز الستين . ولكن الأيام لم تستطع التغلب على روحه ومرحه فلم تترك اثراً على بشرة وجهه الملساء ، فكان لمعان بصره وحركاته الحية ويداه الثابتتان واطفه — كل هذا من صفات الشباب مما لا يجتمع لأحد فى هذه السن .

حيانى تحية الصديق القديم وتحدث معى طويلا . وحدثته بحديثى من يوم سفرى إلى اليوم ، ولم أخف عنه شيئا غير مدرسة الفلم ، وسألنى عن مشروعاتى المستقبلة . فأظهرت له حيرتى فقال لى أن له اختا شقيقة تحترف الكتابة وان اسمها معروف بين الأدباء . وهى الآن على سفر فى السويد للترويح عن النفس . ومتى عادت ربما استطاعت أن تقدم لى خدمة فى ناحية الكتابة ، وأنه سيكتب لى قريبا ليلتقى مرة أخرى فاستأذنته شاكراً فى الإنصراف ، فدار معى دورة فى الاستديو وودعنى إلى الباب وخرجت من عنده وقد تجددت الآمال فى نفسى .

* * *

وقضيت عشرة أيام فى غرفة المحاضرات وخمسة أيام للتمرين عملياً فكانت الأيام الخمسة الأخيرة العذاب الحق لمعلمنا . فقد انتقلنا إلى غرفة صغيرة حيث الماكينات والأفلام ولوائح البوليس التى لا بد لعارض الفلم من الألمام بها والتى يجدها الواحد معلقة فى كل غرف ماكينات السينما ويافطة مكتوب عليها ممنوع التدخين منعاً باتاً ، فكثيراً ما قطع المدرس الدرس ، وكثيراً ما كان يجرى إلى

«الطقطوقة» الموضوعة على الفرن القائم فى إحدى زوايا صالة المحاضرات ليأخذ نفساً أو نفسين من سيجارته ثم يعود إلى عمله .

وانتهت الدراســـة النظرية والعملية . وقادنا المعلم إلى مكتب المدير لتسلم شهاداتنا .

فسأله: «كيف حال تلاميذك ؟»

«على مايرام يا جناب المدير»

«والمصرى ؟»

«آه ! انه متين فى الحساب»

«حسنا !» ، وسحب درج مكتبـه وأعطى لكل واحد منا شهادته . وكانت عبارة عن ورقة سمراء منسوخة على الآلة الكاتبة نسخاً رديئا مما لا يكاد يصدق مصرى أنها شهادة ، فكانت الحروف غير واضحة ، وليس بها أى رسوم أو تزيين . لو كان بها فقط صورة طائر أو زهرة ! ربما كان فى طاقتى ان أفخر بها فى مصر لو قدرت لى العودة اليها يوما ما ولكن هكذا كانت الشهادة . .

«تصنع معى جميلا أيها السيد المدير لو أعطيتنى نسخة أخرى فحروف هذه النسخة غير واضحة» فابتسم الرجل وبحث لى عن نسخة صالحة . واستأنفت الحديث «بودى أن أتحدث اليك حديثا خاصا» .

«بكل سرور تعال غـــدا إلى المكتب بين التاسعة والعاشرة فأنا مشغول الآن»

وكم كان اغتباطى شديدا بنيل هـــذه الشهادة ، وزرت فى المساء معارفى وأوصلت اليهم هذا النبأ السار ودعوتهم مقدما لزيارة الأفلام التى سأديرها .

مع السلامة ايتها الكتابة لقد أجعتنى وجعلت منى متشردا . ومن قال أنى ملزم أن أغذى أذهان الناس بقلمى وأن أروح عنهم ، اذا هم لم يرغبوا فى دفع شىء نظير ذلك .

ولكن ماذا عسى يكون مصير قلمى . شىء مثل هذا لا يصح تحطيمه. آهها. سأقبره فى زاوية من زوايا حقيبتى . وأبحثه من لحده مرة فى مثل هذا اليوم من كل عام لأؤرخ به هذا الحدث فى مذكراتى . لعنة الله على الوقت الذى أضعته معك . وبارك الله فى العصر الجديد عصر العمل اليدوى . وان أهديك للآنسة ما كسونج حذر أن تشأمها فربما فقدت وظيفتها بسببك . لقد صممت على قبرك

وفى منتصف العاشرة من اليوم التالى كنت جالسا فى مكتب مدير السينما وطلبت اليه أن يعاوننى على إيجاد عمل لى فى إحدى دور السينما لأنى غريب وفى حاجة للعمل وليس لدى وسيط

« تريد أن تشتغل فى برلين فى عام ١٩٣٢ ـ هذا مستحيل ـ أولا يجب عليك الحصول على إذن للعمل . بعدها يجب عليك أن تشتغل ستة أشهر فى إحدى دور السينما كصبى . ثم عليك بعد ذلك أن تؤدى امتحانا أمام البوليس فى العلوم النظرية والعملية ، وكأجنبى يلزمك بعد كل هذا أن تحصل على ترخيص للعمل من إدارة العمل وأشك فى إعطائه لك . »

« ربما استطعت أن توصى بى كصبى حتى أتمكن من التمرين المدة المطلوبة للدخول فى الامتحان لأستطيع أن أعالج هذه المهنة فى بلد آخر . »

« وهذا يصعب عمله كذلك . فالصبيان عندنا لا يعملون بالمجان بل تدفع لهم أجور ، ولا بد من الحصول على تصريح بذلك من مصلحة العمل »

فاسودت الدنيا فى عينى ودارت الأرض تحت قدمى لا كما تعلمنا فى دروس الجغرافيا بل أحسستها تدور بالفعل فرأيت القطب الشمالى والقطب الجنوبى ورأيتنى نفسى فى صحراء القارة المظلمة وحدى وسمعتنى أقول لنفسى «إذن لا يوجد مخرج لى . »

غادرت الغرفة دون أن أقول كلمة وتعثرت ثلاث أربع مرات فى السلم واصطدمت أكثر من مرة بالنازلين والصاعدين .

كنت أعمى ، أصم ، أبكم ، ولما بلغت الباب أحسست يدا على كتفى تهزنى شمالا ويمينا وكانت يد سكرتيرة المدير ـ قالت وقد أشرق وجهها : « جريت وراءك فى السلم أناديك ولكنك لم تسمعنى »

« أأنت ناديتنى ـ أرجو معذرة ـ ترانى نسيت شيئا ؟ »

« لا ـ ولكن عند المدير خبر طيب لك . »

« وكيف كان ذلك ؟ ـ لقد كنت عنده منذ هنيهة ! »

« أسرع واصعد اليه » .

المدير : « يظهر أنك رجل محظوظ ! فى اللحظة التى تركت فيها غرفتى دق لى مدير سينما (السعادة فى نيوكان) التليفون وطلب إلىّ أن أرسل اليه مساعدا يستطيع العمل ابتداء من اليوم . ففكرت فيك فى الحال واليك العنوان أرجو أن تذهب اليه عصر اليوم . جرب حظك » .

« ألف شكر وشكر » ـ وشددت على يده علامة الامتنان الصادر من أعماق قلبى .

عامل أسود

أترك للقارىء تقدير فرحى عند سماع هذا النبأ . . . .

بلغت أول حى (نيوكان) فى منتصف الرابعة ، وبعد أن سرت فيه بضعة أمتار ناولنى أحد الصبية اعلانا قرأت فيه « تعرض سينما السعادة رواية (بن هور) ابتداء من يوم الجمعة » قطعة قديمة لا بأس بها . لا بد وأن تكون سينما كبيرة

ولا بد أن يكون جمهورها عظيما . إنها حقا لسعادة كبرى أن أعمل فى سينما السعادة . فلنحسب عارض الفلم فى هذه الدار يتناول ٣٠٠ مارك ومساعده على الأقل ٢٠٠ ، لا ، هذا ليس صحيحا . يجب على الواحد أن يفترض دائما أسوأ الفروض ، وعليه ، عارض الفيلم يتناول ٢٠٠ مارك فقط ومساعده ١٥٠ ، ففى بلاد متمدينة كالمانيا لا يمكن أن يتناول العامل أقل من ذلك . مبلغ جميـــل . وبدون شك إذا ما لحظ المدير اجتهادى وتقديرى للمسئولية فسيحقق أنه سيزيد مرتبى

وفجأة أجد نفسى أمام رجل يوزع اعلانات على مدخل السينما ، وهو يحاول أن يدس اعلانا فى يدى . فحدجته بنظرة فاحصة من قمة رأسه إلى قدمه - رجل غليظ الجسم ، ضخم المؤخرة ، قصير القامه ، يرتدى ملابس قذرة . مؤكد أن المسكين لا يتناول فى اليوم أكثر من ثلاثة ماركات ، ومن يدرى إذا كان رب عائلة ، فان منظره ليخبر عن شىء من ذلك . سأساعد كل زملائى . وبعد هذه التأملات التفت اليه وسألته : « أين يوجد السيد المدير لأتحدث اليه ؟ »

فاعتدلت قامته ، وأنزل يده بالاعلانات

« أنا هو »

فأسرعت ورفعت قبعتى وقلت فى ادب : « جئت بناء على توصية مدير مدرسة السينما بشارع فردرش لأشتغل عندكم كمساعد »

« نعم ، نعم ، لقد دققت له التليفون اليوم . من أين عرفته ؟ وماذا تعرف ؟ »

لقد درست فى مدرسته ، وأستطيع أن أقدم لك شهاداتى » وعند ذلك نشرت له أوراقى أمام أنفه .

فحدق فىّ المدير العجوز القذر من رأسى إلى قدمى ، فقرأ آيات الحاجة للعمل مرسومة على وجهى .

« ولكننا لا نريد مساعدا بالمعنى المفهوم . نحن نريد فقط شخصا يقف تحت يد عارض الفلم ، وعدا ذلك فنحن لا ندفع أكثر من ماركين » .

آهها يريد الثعلب الخبيث عاملا أسود ، عاملا غير مرخص . ولم لا يقول هذا فى صراحة وجلاء . فكرت فى الأمر لحظة ، فوجدت انى مضطر لقبول عرضه ، فربما استطعت أن أقضى عنده الأشهر الستة اللازمة للتمرين .

« اتفقنا ! »

فدعا أحد الصبية وقال له أره المكان الذى يخلع فيه ملابسه . وبعد بضع دقائق وجدتنى فى غرفة الماكينة . وكان عارض الفلم فتى فى منتصف العقد الثالث خشن الأخلاق ، متعجرفا .

« إنت ! ما اسمك ؟ أين تعلمت ؟ »

« . . . ، وتعلمت فى مدرسة السينما . »

« مدرسة السينما ؟ » وهز كتفيه استهزاء « الذين يتعلمون فى مدرسة السينما لا يفهمون شيئا ، أنا لا أومن إلا بالتمرين والتجربة . سنرى ، خذ فلم الثقافة ولفه » .

فتناولت العجلة . ولففت الشريط ، ووضعتها فى خانتها . وقارب الفصل الأول من بن هور أن ينتهى فأعددت لزميلى الفصل الثانى ليضعه فى الماكينة الثانية ، ثم وقفت إلى جانب الأولى . ولما انتهى عرض الفصل أخرجت الشريط من الماكينة الأولى وأعددت لفه ، وكان بجوارى كرسى خشبى شاغر فجلست عليه . فسمعت صوتا أجش خلفى « لا جلوس فى ساعة العمل »

فنهضت فى الحال واقفا : « معذرة ، كنت أجهل هذا . ومع ذلك فليس لدى الآن ما أصنعه . »

« انزل وأحضر لى ماء . أريد أن أغسل يدى . »

ولما عدت كان على أن أصب الماء على يديه . وفكر قليلا ثم قال لى .

« لست بالرجل المطلوب . أنت ثقيل الحركة . أسرع وناولنى المنشفة »

فقدمتها اليه معتذرا : « أحب أن أقول لك شيئا أيها الزميل المحترم ،

صبورا معى ، وسأتعلم كل شيء . وأعدك أن أبذل جهدى لأرضائك .»

فلم يلتفت إلىّ الفتى ولا قال شيئا . وبعد قليل نظر إلى ساعته وقال :

« الجو حار ، افتح الباب . »

وجاءت فترة الاستراحة . فوقف أمام الباب وأخذ يغازل فتاة تنظر من شباك مقابل . وفجأة نظر وراءه وسأل :

« هل تعرف أن تضع الفيلم فى الماكينة ؟ »

« نعم ! »

« جرب . سنرى . »

فوضعت الفيلم طبقا لما تعلمته . فتقدم وفحصه . ولم يجد غلطة فيما صنعت . ثم قال بصوت خشن :

« اسمع . إياك أن تدع الباب مفتوحا فى أثناء دوران الماكينة . أسرع وأغلقه ما أجهلك باللوائح ! »

والعجيب أنه هو الذى فتحه ليغازل حبيبته . ولم تكن الماكينة قد ابتدأت تدور بعد !

وقضيت الوقت كله فى استخراج الفيلم من الماكينة وإعادة لفه ثم وضعه فى خانته ، وتركيب الذى يليه ، وهكذا دواليك حتى منتصف الساعة الثانية عشرة دون أن أجلس لحظة واحدة . وفى النهاية كان علىّ أن أصب الماء على يديه . ولما كنت لا أدرى أين أغسل يدى قبل مغادرة المكان سألته فى أدب عن مكان المغسل فأشار إلى الماء القذر الذى غسل به يديه . ثم كان على أن أرافقه حتى باب داره . ولما سلمت عليه عند افتراقنا قال لى مهددا :

« لا تنس غدا أن تكون هناك مبكرا لتنظيف الغرفة . »

وعدت إلى دارى فبلغتها جثة هامدة لعدم تعودى على الوقوف طول تلك

المدة واستيقظت فى الساعة العاشرة صباحا فأحسست ألما فى ذراعى من طول التدوير ، وتعبا فى قدمى من طول الوقوف . وكأن جسمى ركب من جزأين موجوعين يؤلمانى كل الألم . ولم تكن صاحبة الدار موجودة فى الدار فى هذا الوقت فدخلت المطبخ لأهيىء لى فنجانا من الشاى فوجدت الدكتور شميجلسكى يصنع لنفسه شايا ، فلم يكن قد تناول طعام الفطور بعد ، فشاركته فيه . ونزلت إلى الشارع لأقوم بجولة صغيرة . ووقفت عند ناصية شارع تونتسن لا أقطع بشىء ، وخطر لى أن المشى ضرب من الجنون . فاشتريت بعض الطعام . وأخذت طريق إلى الدار . وهناك أعددت لى طعاما لآخذه معى . ولففته فى ورقة كما يصنع العمال هناك . . .

نظفت المدخل وغرفت الماكينة ، وركبت الفيلم الثقافى وبقيت بجانب الماكينة واقفا ، كما قال لى زميلى . وجاء بعد قليل . ولم يتكلم معى ولا كلمة واحدة طول الوقت . ولما جاءت فترة الاستراحة نادانى فى خشونة : « افتح الباب » وصنع ماصنعه أمس فوقف يغازل الفتاة وهكذا انقضى يوم مثل سابقه .

وفى اليوم الرابع كنت مقتولا . واضطررت طول الوقت أن أستند إلى الحائط حتى لا أسقط . واهتزت يداى وأنا أدير الفيلم من الضعف . ولم أستطع أن أستجمع رأسى .

« ألم أقل لك أن تلاحظ أيها الغر فتح الباب بمجرد ما تبتدىء الاستراحة ؟ »

« معذرة ، فأنى أحس اليوم ضعفا فى جسمى ، ولم ألحظ ذلك من قبل »

ولما كان غزله لا يهمنى ، وكان رأسى ثقيلا ، لم أهتم بما يجرى حولى وبدا لى فقط من كل مادار بينهما أنهما غاضبان معا .

وعاد إلى الغرفة وانتهت الاستراحة ، وأراد أن يسرع فى إدارة الماكينة .

وكنت نسيت أن أركب الفيلم . فتصاعد غضبه إلى رأسه وسب ولعن . فأسرعت إلى الرف . وأخرجت أحد الأفلام . وركبته على عجل . ولكن عارض الفيلم لم يكد يدير الماكينة حتى لاحظت خطأى وأنى وضعت فلما مكان الآخر . فقد ركبت الفصل السادس من بن هور فصرخت .

« قف ! قف ! هذا خطأ ! » واشتغلت بتغيير الفيلم فلم أسمع شيئا من سبابه . ولما انتهيت من عملى « التفت إلى غاضبا : « لا بد أن تفتح عينيك ! » وأدار الماكينة على عجل دون أن يفحص الفيلم . وكانت الاستراحة قد انتهت منذ مدة ، وتأخر العرض بضع دقائق . وتعالى الينا التصفيق والضوضاء من الصالة على غير المعتاد . وسمعنا قهقهة وصفيرا عاليين ، ولم أدر لقلة تجاربى السبب ، وحسبته بسبب تأخير العرض ، وبقيت واقفا جامدا فى مكانى بين الماكينتين فصرخ عارض الفيلم خائفا :

« أوقف الماكينة ! أوقف الماكينة »

ولم أقو على تحريك عضو من أعضائى ، فاندفع هو نفسه الى الماكينة وأوقفها . فسألته شارد الفكر : « ماذا حدث ؟ »

« ماذا حدث ؟ ! » وكان الشرر يتطاير من عينيه ، وأراد أن يصفعنى ولكنى تجنبت صفعته . هذا الفتى أراد أن يصفعنى ! كنت قد ركبت الفيلم بالمقلوب فظهر الممثلون على الشاشة على رءوسهم وأرجلهم إلى أعلى ، ووقف رامون نافارو على أم رأسه فكان لهذا أثر لا بأس به عند المتفرجين . وعلى أية حال فقد ضحك النظارة من أعماق قلوبهم ، ولكن صاحب السينما ومعاونه كادا يبكيان ، وجاءا الينا يسبان ويلعنان . .

وكان اليوم السادس يوم الأحد وأردت أن أستيقظ كعادتى فى الساعة

العاشرة ولكنى لم أستطع حراكا . فاستجمعت كل قوتى للنهوض فتعذر على ذلك ودقت الساعة اثنتين ، ثلاثة وأنا لا أزال راقدا فى الفراش ودقت صاحبة الدار على الباب فى الساعة الرابعة لتخبرنى أنى مطلوب على التليفون فنهضت فى الحال .

الرسام شتين يدعونى فى هذا المساء مع صديقتى الأمريكية للعشاء عنده فقبلت الدعوة لأنى كنت مصمما على عدم الذهاب فى ذلك المساء إلى دار السينما .

ومررت على الآنسة ماكسونج واصطحبتها إلى دار الفنان فقدمنا إلى بعض الشخصيات الكبيرة كما قدمنا إلى شقيقته الأديبة التى لزمتنى طول الليل تتحدث إلىّ فى الأدب وعرضت علىّ أن أفكر فى وضع قصة معها عن الشرق .

وفى عصر يوم الاثنين ذهبت معافى إلى السينما ، ولم يكد يرانى عارض الفيلم حتى أبدى دهشته ، ورأيت فتى واقفا مكانى .

وقال لى زميلى : « ماذا تريد هنا ؟ »

« ؟؟؟؟ »

« اذهب إلى المدير فهو فى حاجة إليك »

فنزلت فى السلم حائرا

فسألنى المدير . « ماذا تريد هنا ؟ »

« لا أريد شيئا . لقد أرسلنى زميلى لمقابلتك . »

« كذا كذا ! أين كنت أمس ؟ »

« أنا ؟ كنت طول اليوم فى الدار ! »

« فى الدار ! فى الدار ! »

« نعم فى الدار . أقص عليك أحد غير ذلك ؟ »

فاحمرت وجنتاه من الغضب لبلادتى : « أنت لاتزال تعيد قولك فى الدار؟ لابد أن يكون بعقلك دخل ، لماذا لم تأت إلى هنا أمس ؟ »

« أمس كان الأحد ، وأعرف من بلدى أن العمال فى أوربا لايعملون فى هذا اليوم »

« كذا ، كذا ! والسينما تقفل أبوابها كذلك ؟ ! أتعرف أنها تقيم فى هذا اليوم بصفة خاصة ثلاث حفلات بدل حفلتين »

« حسبت أن دور السينما الصغيرة هى التى تفعل ذلك فقط . »

« كذا كذا ! من أى البلاد أنت ؟ »

« من أفريقيا ! »

« لسنا فى حاجة لعمال افريقيا . »

وفتح دفتره وقال لى : « لقد اشتغلت عندنا خمسة أيام . هاك ١٥ ماركا ولا ترنا وجهك » .

آه ! لولم أكن مهدور الدم فى هذه البلاد! لو أن ورائى معتمدا يدافع عنى! لو كنت ميسوراً ! لطوحت بهذه النقود فى وجه هذا الرجل بل هذا القزم. لقد أعطانى الوغد خمسة ماركات أكثر من حقى ليتخلص منى .

فى مصنع الالات الكاتبة

عدت إلى الدار كسير الخاطر محطما . وبقيت يومين لا أفكر فى عمل استسلمت فيهما للأقدار . وفى اليوم الثالث زرت الأمريكية فى المساء وتبادلت الرأى معها فيما يجب عمله . وبقيت عند رأيى أن أعالج عملا يدويا من جديد ، وبقيت عند رأيها أن أبقى بالعمل الذهنى ، فهذا ما تعلمته وعالجته ! وهو خير ما أفهمه وأحسنه .

« ولكنه يستحيل على ذلك فى أوربا . فالسوق متخمة ، وإذا كنا نشكو زيادة الانتاج فى البضائع والمحاصيل مرة ، فأنا نشكوه فى الأدب والفنون مرات ، وعدا هذا فقد عالجت حظى فى هذه الناحية فلم أفلح . وإذا كنت لم أوفق كذلك فى العمل اليدوى فميدانه متسع ، وعلىّ ان أعالج حرفة أخرى »

« اصنع ما بدا لك ، على أية حال يمكنك الاعتماد على فى كل وقت »

وقضينا المساء معا . أكلنا وشربنا ودقت لى قطعة من بتهوفن على كمانها . واتفقنا على زيارة الهرشتين وشقيقته عصر غد للاستنارة برأيهما .

وصارحت الفنان وأخته بما أخفيته عنهما فقر قرار الجميع على أن أعالج العملين اليدوى والذهنى معاً . واقترحت على الأخت أن أكتب لها بعض القصص الصغيرة على أن تصقل لغتها ، وأخذت على عاتقها أن تدور بها على الصحف وتركوا لى اختيار أية مهنة أرضاها واشتدت عزيمتى لهذا الحل

ولم أحتج إلى كبير عناء فى التفكير فى مهنتى الجديدة . فقد وقع نظرى فى الطريق على الآلات الكاتبة فى واجهات الحوانيت ، فخطر لى أن أتعلم تصليحها وتوهمت أن هذه الصناعة من أخف الصناعات فضلا عن أنها تمت للكتابة بسبب . ولكن كيف الوصول إلى ذلك ؟ وأخيرا فكرت فى دار البريد . إلى دار البريد ! هذا حق ، وهناك نسخت عنوانات مصانع تصليح ماكينات الكتابة فى كناشتى . وعدت إلى الدار وكتبت لها جميعا بما معناه - انى صحفى مصرى ، وأرغب فى تعلم هذه الصناعة . وسألتهم إذا كانت توجد لى عندهم فرصة للتطوع فى مصانعهم . . . الخ الخ .

وردت الأجابات المنتظرة فى الأيام التالية واحدة بعد الأخرى تحمل أسفهم لسوء الحال الاقتصادية فى البلاد ، ولاضطرارهم للتوفير فى العمال وانقاص

ساعات العمل . فاسقطت المشروع من حسابي . وعلى غير انتظار يجيئني كتاب من مصنع أدلر أكبر مصنع للآلات الكاتبة والسيارات فى أوربا . فقلت فى نفسي « طبعا رفض » وكم كانت دهشتي عظيمة حين قرأت فيه أن المدير العام يطلبني لزيارته .

استقبلني المدير استقبالا وديا . وعرفت من وجهه أن لديه تصميما وأراد قبل تحقيقه أن يتحدث إليّ . فقد غمرني بأسئلته . أمعتزم مباشرة هذه الصناعة فى مصر ؟ ولماذا تتعلمها ؟ وأية علاقة لها بالصحافة ؟ الخ . الخ . فأجبته أن الشرق ما زال عالة على الغرب فى هذه الصناعة وغيرها ، وأن هناك حركة وطنية فتية تعمل على استقلال البلاد فى مختلف الصناعات . ولذا هبّ شبابه المثقف للتزود من الصناعات الأوربية ، كل طبقا لرغباته وميوله . وقد وقع اختياري على هذه الصناعة الخ . ويخيل إلى أن ما قلته قد وقع من نفسه موقعا طيباً . فقال مبتسما :

« ومن يدري ، فمن الجائز أن يأتي يوم نعمل معا . فنحن نبحث منذ زمن طويل عن سوق فى الخارج لتصريف بضائعنا . فاذا شئت أعطيناك توكيلا عنا فى كل بلاد الشرق . ولكن قبل كل شيء عليك أن تقدم لنا أحـــدا يعرفك » فوعدت بذلك .

بقيت مدة التعليم . فدعا اليه كبير عمال المصنع ، وقدمني له كوكيل المصنع فى الشرق ، وسأله كم من الزمن يلزم لتمريني على اصلاح الماكينات فقال يلزم للصبي ثلاثة أعوام كما تعلم . أما السيد فرجل ذكي كما يبدو وأظن ستة أشهر تكفي لتدريبه . »

فأفهمه أن الادارة يهمها أمري ، وأمره أن يخصص لي لي عاملا فنيا على حساب المصنع لتعليمي وصبيا لأعمال التنظيف . وحددنا أول يونيو للابتداء

فى العمل . واتفقت على أن تكون مدة التمرين دون مقابل . وقال لى كبير العمال عند توديعى . « لاتنس أن تحضر معك معطفا أزرق أو أسمر للعمل وإلا تو سخت ملابسك . »

وزفت هذه البشرى إلى الفنان شتين وطلبت اليه أن يضمننى عند المدير . وأنها حقا لبشرى ، فقد كانت فرصة ذهبية لدرس حالة العمال فى المصنع عن كثب وكان قد بقى معى من النقود مائة مارك . تكفينى مع التقتير شهرا ولم يكن لدى مورد آخر ، ومع ذلك لم أفكر لحظة واحدة فى وسيلة للحصول على مال يكفينى ولو لمدة التمرين .

وذهبت إلى محل العمل فقدمنى كبير العمال إلى رفاقى العمال ، ودار معى دورة فى المصنع ، ليريني غرفه المختلفة ، وليوضح لى أسراره « هذه غرفة البنزين لغسل آلات الكتابة ، وقد صُفح بابها ، وعمل بحيث يقفل من نفسه اتقاء لخطر البنزين . والتدخين بالطبع ممنوع هنا قطعيا . ولن تحتاج لاستخدامها ، لأن الصبى سيقوم عنك بذلك ، وهذا مخزن الماكينات القديمة . وإذا خف العمل عندنا شغلنا عمالنا فى تصليحها وما رأيك فى هذه الآلات العتيقة ، انها تصبح جديدة بعد التصليح ، وهذه غرفة بها قطع تغيير الماكينات ، ونحن نبيع منها أيضا . » وأخيرا وصلنا صالة هائلة منيرة ممدودة فيها موائد مستطيلة يجلس اليها العمال ، وهذه هى الورشة

وأشار كبير العمال إلى أحد الكراسى وقال لى : « هذا مكانك ، وهناك جلس العامل الذى اختارته الادارة لتدريبى عن يمينى وجلس صبى عن شمالى

سألنى العامل معلمى « أتفهم شيئا فى الميكانيكا ؟

فأجبته « لا أفهم منها غير الاسم ، ولا شىء آخر غير الاسم . »

فهون على الأمر قائلا : «سنفهم فلست بالغلام الغبي الذى يحتاج إلى التدريب ثلاث سنوات . وسأبذل جهدى لتدريبك فى مدة قصيرة . قل لى أتنوى أن تفتتح لحسابك مصنعا فى مصر ، أو ستأخذ توكيلا عن مصنعنا ؟ أنا لا أحاول اكتشاف سرك ! ولكن ذلك من باب ... أتدرى أن الحال إذا لم تتغير عندنا قريبا ، فسيغلق هذا المصنع وغيره أبوابه وسيسرح العمال فى الطرقات . ولقد أنقصت ساعات العمل إلى ست ساعات ، ولا يدرى أحد كم من الزمن يطيق العمال ذلك ؟ رحلة إلى مصر لا بأس بها ... »

فالتزمت الصمت أزاء هذه المجاملة الرقيقة . وأخذ يرشدنى إلى العمل فأحضر ماكينة بها خلل ، فحاولت الكتابة عليها ، فوجدت أن الحروف الكبيرة ترتفع عن السطر كثيرا عند الدق عليها كما تنخفض الحروف العادية عنه . ولم أعرف علة ذلك . وكانت تعليلاتى لهذا الخلل تثير الضحك

وفى النهاية قال لى : « أحب أن ألقنك عدة قواعد ذهبية ، أولاها عليك أن تتأكد قبل كل شىء من تثبيت المسامير جميعها فى أماكنها ، فإذا لم تعمل بعد ذلك فابحث عن الخلل فى ناحية أخرى » .

وأعطانى (مفكا) فعالجت المسامير فوجدت بالفعل مسمارا غير مثبت فى مكانه وبعد تثبيته ضربت على الحروف فلم أجد عيبا فى الكتابة .

فقال ضاحكا : « شىء بسيط لا يكلف أكثر من عشرة ماركات . لا داعى للطمع حتى نبقى محبوبين عند زبائننا . لقد كانت الآنسة صاحبة هذه الماكينة فى حالة يأس . وقد أظهرت معها شهامة فوعدتها بتصليحها اليوم ! » .

ثم أحضر ماكينة ثانية ، وطلب إلى أن أستخرج مساميرها دون أن أتعرض لأجزائها ، وأن أعيد المسامير مكانها ، على أن أرجع إليه كلما وجدت صعوبة .

فقلت : « وأية صعوبة فى هذا ! ما أهون هذه العملية ! ليس فى هذا أى فن . »

واستخرجت المسامير فى فترة قصيرة ، ولكنى لم أستطع إعادة مسمار واحد مكانه : فرجعت إليه مائة مرة « أين يوضع هذا ؟ ما مكان ذلك ؟ » وانقضت ثلاث ساعات ولم أنته من هذه العملية .

وفى الساعة الحادية عشرة وقف العمل . وأخرج العمال من حقائبهم طعام الفطور . ومر صبى بورقة فى يده على كل واحد منا يسأله عما يرغب شراءه من (بوفيه) العمال ليحضره له . وكنت جائعا فتمنيت لو أحضر لى بعض المقانق ، ولكنى كنت شديد الحرص على نقودى . وكان العمال شغوفين برؤية ما سأوصى به ، وأدهشهم أنى لم أطلب شيئا . والتفوا حولى يستفسرون عن عوائد مصر الغريبة « أو تستطيع الصبر دون غذاء من الصباح المبكر حتى الظهر ؟ »

« طبعا ! فنحن لا نأكل فى مصر غير ثلاث وجبات فى اليوم » .

« غريب هذا ! مصر ليست لنا . فنحن لا بد لنا فى الصباح المبكر من القهوة وقطعة خبز مع الزبد ، على أن نتناول الفطور فى الساعة الحادية عشرة والغذاء فى الساعة الواحدة ونتناول بعد ذلك وجبتين فى دورنا ! » .

وضحك الجميع . وهنا جاء إلىّ كبير العمال خصيصا وقال لى . « إن فى استطاعتك أن تشترى ما تشاء من بوفيه الموظفين ، فنحن لا نعامل هنا كعامل »

فضايقتنى رقته ومبالغته فى العناية بى . واضطررت إلى طلب فنجان من القهوة . كلفنى هذا الفنجان كثيرا - كلفنى وجبة الغذاء فى ذلك اليوم . وارتعدت فرائصى فى فترة الظهر . فقد دار « الصبى بورقة علينا كذلك وأدهشهم أنى لم أتناول شيئا ، واحتجبت بعاداتنا .

وفى تمام الساعة الثانية أغلق المصنع أبوابه . وسرى عنى العمل كثيرا . ووقفت فى طريقى إلى الدار أمام كل نافذة جانوت بها آلة كاتبة معجبا وناقدا

كما يفعل الفنيون فيما لهم به علم .

وسألني الصبي في اليوم التالي أيحضر لي فنجانا من القهوة أو كوبا من البيرة فقلت له : « اني لا أستلذ القهوة الألمانية ، والبيرة حرام عند المسلمين وأنا مسلم : » فأخذوا يتهامسون فيما بينهم وسمعت صبيا يقول الآخر « هذا الرجل مفرط في الغنى ولكنه بخيل . انه غني قذر ككل الأغنياء : ماذا عليه أن يمنحنا شيئا إذا صدق قوله ؟ » .

ولا عتب عليهم ، فماذا عساهم يعلمون من أمري ، وماداموا يقدمون لي خدمات ، فلم لا ينتظرون مني شيئا في مقابلها ، فضلا عن ذلك فإن حالتهم كانت من السوء بمكان . آه لو علموا حقيقة حالي ! وكم من مرة هممت أن أقول لهم الحقيقة ، ولكني خشيت أن يصل شيء منها إلى أذن المدير فيفصلني . وقد تتغير نفوس هؤلاء الناس نحوي بعض الشيء كذلك ، إذا ما وقفوا على الحقيقة فإن للهالة التي تحيط بالثروة سحرا على بسطاء العقول . وعلى ذلك ترددت بين قول الحق وبين تحمل احتقارهم وآثرت الأخير في سبيل تحقيق غايتي .

وانتصف شهر يونيو أو كاد ، وضاع كذلك نصف ثروتي فلم يبق معي غير خمسين ماركا ، فبدأت أفكر في الحظ القريب الذي سأواجهه . فجلست إلى ماكينتي ، وكتبت أربع قصص قصيرة وحملتها إلى شقيقة الهرشتين ، فأعجبت بها جد الاعجاب ونسخت منها عدة صور ، وبعثت بها إلى عدد من الصحف . وفي غضون أسبوع أعادتها إلينا إدارات الجرائد غير مقرونة مع جواب مطبوع يأسفون فيه لرفضها . وانفردت جريدة فوسشا أكبر صحف المانيا اليومية أو قل العالم ، التي تهتم بالأدب بكتابة كتاب رقيق لي تقول فيه : انها معجبة بهذه القصص ، وانه نظرا لوفرة المواد عندها ستكتب لي مرة أخرى عند ما يحين نشرها . فعد أصدقائي هذا فوزا وشرفا عظيمين . . ولم تحل الكتابة مشكلتي هذه المرة كذلك .

أعملت الفكر طويلا فلم أهتد لحل ، ولم يبق لدى ما أبيعه أو أرهنه غير ماكينتى على الرغم من حاجتى اليها كحاجة الصانع إلى أدوات عمله . وكنت قد اشتريتها من مصر قبل سفرى ببضع أيام بما يساوى ٣٠٠ مارك . فحملتها إلى إحدى دور الرهن فى شارع فيتنبرج فأبى صاحب المحل أن يعطينى عليها أكثر من ٦٠ ماركا . فترددت فى رهنها ولما أزف الشهر على الانصرام تحرجت حالى وبدا على الاضطراب فسألتنى الأمريكية فى أحدى الأمسيات فى أدب ورقة عن ظروفى المالية فصارحتها إنى مزمع على بيع ماكينتى ، فقالت هذا يستحيل لشدة حاجتك لها خصوصا بعد أن أفسحت الصحف لك صدرها . وعرضت على مساعدتها للخامس أو سادس مرة وشددت ، وشددت فى الرفض ، قالت « أنا فى حاجة إلى ماكينة وسأشترى ماكينتك ما دمت مصمما على بيعها بمائتى مارك ، ولك أن تستعملها مدة إقامتى فى برلين . . » ورضيت هذا الحل بعد تردد . .

وانقضى يونيو وتبعه يوليو . وفى منتصف شهر أغسطس أو بعد انتصافه بيوم أو يومين جاءنى كتاب من جريدة فوسشا تقول فيه أن قصصى ستنشر تباعا ابتداء من يوم الأحد . ثم بعثت لى بالأعداد ومعها تحويل على البريد بثلاثمائة مارك فأنفقت منها خمسين ماركا فى ليلة واحدة ، وأهديت أصدقائى بما قيمته مائة مارك وبقى معى مائة وخمسون ماركا من التحويل .

وكان شهر أغسطس على وشك الانصرام ، ووجدتنى لم أتقدم ولا خطوة واحدة فى المصنع ، وأن معلوماتى فى الميكانيكا لم تزد شيئا عن يوم دخولى المصنع ، وتأكدت من قلة استعدادى للعمل اليدوى فانقطعت عن الذهاب ، ولم أعلن المدير كذلك ، ولا عملت حسابا للمستقبل . واستولى علىّ شعور عدم الاكتراث . وحننت إلى مهنتى الأدب ولو ألصق أنفى بالتراب . .

عند السيدة زور

أبرق معهد بوسطن للآنسة ماكسوبج أن تغادر ألمانيا فى غضون شهر سبتمبر ، والا اضطر إلى الاستغناء عنها . فعرضت على أن تمضى أمر المعهد وتبقى معى ولو كلفها ذلك مستقبلها بل حياتها ، فصرفتها عن رأيها فى رقة وأدب ، وأبيت الا أن أتحمل نصيبى وحدى ، وبقيت على الرغم من ذلك طول الشهر مترددة فى أمر السفر

وفى آخر يوم فى الشهر غادرت الآنسة ماكسوبج برلين باكية إلى باريس بعد أن أعادت إلىّ ماكينة الكتابة التى ابتاعتها منى هدية منها .

وتنبهت حواسى فجأة ، وحببت إلىّ الحياة فأحسست وحدة تشوبها نشوة دونها نشوة الظفر . فتمر أمام عينى صور عظماء الرجال الذين جاعوا وشردوا منذ عرف الانسان تاريخ الانسانية فأنفض عنى رداء الاستهتار وعدم الاكتراث وأرانى أترنح فى ثيابى عجبا بنفسى وكبرياء . فأنهض من مكانى وقد صممت على أن أعيش مهما كلفنى ذلك

ولم أعجب لهذه الظاهرة فطبيعتى طبيعة ثائرة يزيدها التحدى صلابة وقوة ويؤججها نار الحياة ، كما أن العكس يضعف فيها روح المقاومة ويلين من حدتها إلى حد الاستسلام والضعف

فقررت فى الحال الانتقال إلى غرفة أرخص ، ومعالجة الكتابة والاختلاط بالناس فأنذرت صاحبة الدار بالأخلاء فى منتصف أكتوبر ودرت أبحث لى عن غرفة جديدة فجبت منطقة نيرنبرج حتى شارع بيلو صاعدا فى سلم ونازلا فى سلم . وبقيت أياما وأنا أجد فى البحث عن غرفة مناسبة فلا أجد ، وأخيراً

قرأت فى لوحة الإعلانات فى شارع نيرنبورج عن غرفة بعشرين ماركا . فبدا لى هذا عجبا .

دققت الجرس ففتحت لى الباب سيدة فى الأربعين

« أرجو معذرة أستطيع أن أرى الغرفة المعدة للايجار ؟ »

« وما صناعتكم ؟ »

« صحفى ! »

« كذا ، أنت صحفى . لقد سكن عندى فى غرفة المطبخ الشاعر جورج جورج لعلك تعرفه ! لقد ألّف وكتب كثيرا . ومع ذلك فلم يستطع دفع الايجار فى الأيام الأخيرة . يظهر أن سوق الأدب كاسدة فى هذه الأيام . لقد كان عندى رضيا مرضيا . وإذا كنت صحفيا فأغلب الظن أنك لا تستطيع أن تدفع أجرا غاليا . وربما وافقتك غرفة المطبخ » .

وأحببت أن أقتفى آثار هذا الشاعر العظيم ، فقادتنى المرأة إلى غرفة المطبخ وأثاثها يتألف من رف فوق الفرن وأريكة فى احـــدى الزوايا وكرسى من الخيزران ، ومائدة للمطبخ ، وحنفية ماء .

« أشكرك ، سأفكر » .

ونزلت فى السلم غارقا فى بحار أفكارى . أى زمن نحن الآن فيه ؟ هل انقلبت البشرية حيوانا ضاريا ؟ أو لعلها فقدت الادراك ؟ إذ كيف يعامل شاعر كبير كجورج جورج هذه المعاملة القاسية ؟ يالله فى سمائه ! ما أمرّ كل هذا ! أذكر أنى قرأت له شعرا عن الفاقة ولا أرانى أنساه أبدا مع ضعف ذاكرتى ، وكيف أنساه وقد نحت على ظهر قلبى لأول مرة قرأته . آه ! لو كان هذا الشاعر موجودا فى زمن الرشيد وأنشده أبياته لما حلى صدره بالناشين المصنوعة من الصفيح أو الفضة كما هى الحال فى كل الدنيا

الآن ، ولغمره بالبدرات وأغمده بالجوارى والنياق ، وأجرى عليه وعلى عائلته رزقا طول الحياة . رحم الله العرب ! لم يكونوا يعرفون النياشين التى لا يستطيع صاحبها أن يستبدلها بوجبة من الطعام . والتى لا تخرس صاحبة الدار فى آخر الشهر إذا ما استحق الكراء ، فقدماء العرب كانوا رجال أعمال .

وصلت الى شارع ايزرناخ والأفكار تتجاذبنى من كل النواحى . هنالك وقع نظرى على اعلان عن غرفة بخمسة وعشرين ماركا فى شارع نولندورف عند السيدة زوّر ، وزور بالألمانية معناه مر أو حامض ، فقصدتها .

وشارع نولندورف موحش عتيق ، بيوته عليها غبرة ، بحثت عن نمرة الدار . ودخلت فى دهليز مظلم ، ودققت الجرس ، ففتحت لى الباب عجوز شمطاء هى فراو زور عينها ، ووقفت أمامى فى الدهليز المظلم منتصبة القامة

قلت : لها ، صباح الخير ـ جئت من أجل الغرفة » .

« ادخل ! » وكان صوتها أجش أشبه بصوت الرجال ، وأضاءت النور فى وضح النهار لأن الدار كانت مظلمة . يجد الداخل دورة المياه على يمين الباب وبجانبها الغرفة التى تريد تأجيرها . ومن الظلم أن يطلق اسم غرفة عليها . وإذا كان لا بد من تسميتها بذلك . فلا بد لنا على الأقل من اضافة اسم صاحبة الدار اليها . غرفة زوّر

حسبك من وصفها أن بها نافذة صغيرة تطل على فناء محاط بالدور ، بها سرير محطم ، ومكتب عتيق للكتابة وتناول الطعام ، وأريكة لم أكتشف سرها إلا فيما بعد . إذا جلس عليها شخصان ارتفع أحدهما وانخفض الآخر فكأنما تربع الأول فوق قمة جبل وجلس الآخر تحته فى واد . ضيقة رطبة ، لا يطيقها رجل عصبى مثلى تعود أن يذرع غرفته مئات المرات .

فقلت لها : « حسنا أيتها السيدة زور ؟ أظن أنى سآخذ هذه الغرفة . هل لك طلبات أخرى غير الأجرة ؟ »

فقالت مطأطئة رأسها : « هذه أشياء تافهة . »

« أنا دقيق وأحب أن أعرف حتى توافه الأشياء »

« فلنقل ثلاث ماركات للنور وعشرون فنجا فى اليوم للقهوة . »

« لا أرى ثلاث ماركات بالشىء الكثير من أجل النور . لأن الغرفة مظلمة بالنهار ، ولكن ماذنبى أنا ؟ أما القهوة فلست فى حاجة لها »

فقالت متضجرة : « لا عيب فى الغرفة . السيد فارنر الساكن السابق كان راضيا عنها ، وقد دفع فيها ثلاثين ماركا »

« ربما كان غنيا : إذا شئت أن تعطيها لى نظير ٢٥ ماركا دون زيادة على أن تقدمى لى فى كل صباح ماء ساخنا للشاى فأنا موافق على استئجارها » .

وبعد لأى رضيت وهى تقول : « ان أجد أفضل من الهر فارنر لقد كان كريما ، أما أنت فيظهر أنك مقتر بخيل » واتفقنا على أن انتقل إلى غرفتى الجديدة فى منتصف الشهر . وتعرفت فى الأسبوع الأول من هذا الشهر بشاب سورى يدرس الطب دعانى لزيارة الجمعية العربية التى كان وكيلها ، فزرتها وتعرفت برئيسها المرحوم الحاج شلبى ، وكان فتى يتقد وطنية وغيرة على البلاد الشرقية وطلب إلى أن أخطب الأعضاء عن مصر ففعلت .

وكتبت بعض قصص قصيرة . وسلمتها لأخت الهر شتين فبعثت بها إلى جريدة فوسشا كذلك ، وأخطرتها بعنوانى الجديد .

وفى ١٥ أكتوبر انتقلت إلى مسكنى الجديد عند فراو زور . أستغفر الله بل إلى قبر لا أظن أحداً سكنه قبلى ولا بعدى وضيقت على نفسى كل التضييق

وأخذت أحتاط للمستقبل فخزنت خبزا وأداما كالجبن ومحفوظات اللحم وغيرها خوفا على نفاد النقود منى . وكم كنت أتمنى لو كنت جملا لأخزن هذا الطعام فى جوفى حرصا عليه من التلف . وبقيت أجلس فيها طول النهار . أغسل ملابسى وأنشرها وأصلحها ، أقرأ قطعة من هذا الكتاب وأضعه جانبا ثم أتناول آخر أقرأ منه قطعة وأطرحه ناحية . حتى إذا جن الليل أخرج إلى المتنزهات العامة لأتريض قليلا ولأشم الهواء . وأثر جو الغرفة فى نفسى فانقطعت عن الناس جميعا وقاطعتهم حتى كدت أخرق القوانين وأعرض نفسى للعقاب . فالقانون يقضى عند الألمان على الساكن عند انتقاله من مسكن إلى مسكن أن يعلن دائرة البوليس التى كان يسكن فيها كما عليه كذلك أن يعلن دائرة البوليس التى سكن فيها وذلك كله كتابيا على طابع مطبوع لهذا الغرض حتى يسهل معرفة كل شخص فى المانيا . فأهملت عمليتى التقييد هاتين عشرة أيام حتى لا يهتدى إلىّ أحد من معارفى .

ولما كانت المدة المحددة فى ذلك الوقت لأخطار البوليس يجب أن لا تزيد على أربعة عشر يوما وألا تعرض الساكن وصاحب المسكن للعقاب أخذت صاحبة الدار تلح على كل يوم فى استيفاء هذه الإجراءات فكنت أعدها وأسوف

وصاحبة الدار « فراو زور » امرأة ثرثارة كـكل العجائز . قد حط عليها الدهر بكلـكله فى هذا العصر . ولم يبق لها من حطام الدنيا غير مسكنها الذى اضطرت إلى تأجيره لتستعين على تكاليف الحياة الثقيلة . جاءت إلى بعد أن يئست منى وبعد أن تسرب إلى نفسها الشك فى أمرى ودقت على الباب فى الصباح المبكر وكنت لا أزال راقدا فى فراشى فنهضت لاستقبالها وكانت الدموع تنهمر من عينيها انهمارا فظننت فى الأمر شيئا فأخذت أطيب خاطرها وسألتها عما حدث . فقالت فى ذلة وانكسار « يا بنى لا مؤاخذة ! إن حالتك مريبة وأنا

خائفة منك ، ، من أنا ؟ ، فقالت وصوتها يتهدج بالبكاء « نعم منك أنت . أنت تجلس طول النهار فى غرفتك لا تزور ولا تزار ولا تؤدى عملا ثم تسرح بالليل وتماطل فى تقييد اسمك فى دائرة الشرطة » .

« أسرح بالليل وأماطل ما هذا الكلام أيتها السيدة ؟ » .

« نعم تسرح بالليل وأغلب الظن أنك مختف عندى عن أعين البوليس ارحم أيها الرجل ضعفى وعجزى فأنا امرأة عجوز مسكينة وقد كنت فى صباى فى نعمة ورغد من العيش وقد اضطررت فى هذه السن إلى تأجير غرفتى حتى لا أتسول فلا تجر علىّ كما جار على الزمن وأنا لم أعرف دائرة الشرطة فى حياتى ولا أذكر انى أسأت لأحد . بارك الله لك فى الأجرة التى دفعتها لى خذها ثانية وغادر منزلى »

وأخذت تشهق وتشهنج ولولا أنى تماسكت نفسى هذه الساعة لقضيت عليها بلطمة واحدة . فقد آذتنى فى شرفى وعزتى فى وقت كنت أحس فيه بظلم العالم كله لى

فمسحت كتفيها بيدى وقلت لها ممازحا « لئن حكم عليك الزمان بعد عز فقد حكم علىّ كذلك بعد عز ، فنحن فى البلوى سواء . ما أحق الواحد منا بعطف أخيه . وأقسم لك أنى لست بمجرم وما مسألة التقييد إلا مجرد إهمال سأتلافاه اليوم ودعينى حتى آخر الشهر ولك بعد ذلك الخيار فى إبقائى أو إخراجى »

فخرجت تمسح عينيها وتتمتم بكلام لا أفهمه

فى جامعة برلين

وارتديت ملابسى وغادرت غرفتى وأخذت أتسكع فى الطريق ، ثم دربت عدة دورات فى منتزه هناك قريب حتى كانت الساعة التاسعة وقصدت صاحبة

الدار القديمة لتوقع لى طلب الأخلاء ، فما وقع بصرها علىّ حتى صرخت فى « أين أنت ؟ لقد قلبنا عليك برلين رأسا على عقب وسألنا اداره الشرطة عن عنوانك الجديد فلم نقف لك على أثر . » فوجمت لمفاجآت هذا الصباح . وقلت فى نفسى ترى قد أثار مسلكى شكوك الناس فى ؟ ألست حراً فى أن أسلك مع نفسى كما أحب وأختار ؟ إن هؤلاء الأوغاد يظنونى مجرما .

والتفت إلى محدثتى وقلت لها : « ماذا حدث أنا لم أرتكب جرما أيتها السيدة »

فقالت « خذ مكانك » ووضعت يدها على آلة التليفون فحسبتها تطلب إدارة الشرطة فلم أفزع لحركتها ولم يكن عدم فزعى عن شجاعة أو إحساس بالبراءة ولكنه إحساس آخر ، إحساس عدم الاكتراث . واستوى السجن عندى والحرية كما تعادلت عندى البراءة والاتهام . وتكلمت السيدة طويلا على التليفون . ولم أفهم منها شيئا لأنى لم أحاول أن أفهم منها شيئا . وقامت إلى عملها ورجتنى أن أبقى مكانى فبقيت . وهل كان فى الإمكان غير هذا ؟ .

وبعد قليل دق جرس الباب ودخل زائر لم أتعرفه إلا بعد أن سلم علىّ وهز يدى سائلا عن صحتى وعاتبا على عدم زيارته وجرنى معه قائلا « أسرع أسرع . فليس فى الوقت متسع . أين كنت مختبئا طول هذا الشهر . فتذكرت أنه رئيس الجمعية العربية الذى تعرفت به منذ بضعة أسابيع فتبعته دون أن أسأله إلى أين وتمتمت « صباح غنى بالمفاجآت » فنادى سيارة وركب وركبت معه . ووقفت السيارة بنا أمام جامعة برلين وأرسل بطاقته لعميد كلية اللغات الشرقية . وسمح لنا بالدخول . واستقبلنا رجل ملتح نحيل الجسم أصفر الوجه يشع الذكاء من عينيه أحسن استقبال . وقدمنى رفيقى إليه فزاد فى تلطفه وأمر لنا بالقهوة والسجاير .

فتنبهت قليلا من حالة الجمود التى استولت علىّ . وكلما أفقت قليلا من

هذه الحالة زادت دهشتي وفضولي مما يجرى حوالى ولكنى لم أحاول كشف شيء وقلت فلأدع الرواية تمثل حتى النهاية .

ومضت فترة صمت قصيرة ثم بدأ العميد يتكلم من جديد ولكن باللغة العربية الفصحى موجها كلامه إلىّ . « لقد تشرفت ياسيدى الأستاذ . . أين كنت مختبئا طول هذه المدة ؟ » فقاطعته بشيء من السخرية « شرف الله قدر سيدى العميد كنت معتزلا الناس لأستريح منهم ولأريحهم منى » فاستأنف الحديث. « أنا أعرف اسمك منذ زمن بعيد ، وكتابك كذا المترجم عن الانجليزية فى مكتبي وأظن أنى قرأت لك شيئا فى الصحف العربية . أنت بدون شك الأديب الذى كتب عنه المؤرخ الألمانى هانزكون فى كتابه ـ الاستعمار والشرق ـ » وصمت قليلا ثم قال . « لعلك تعرف الدكتور (و) المصرى . لقد كان استاذا عندنا للغة العربية وقد سافر إلى مصر فلجأنا إلى رئيس الجمعية العربية لترشيح استاذ بدل الدكتور . فذكر لنا اسمك ، وكنت أعرفه فرجوته أن يكون واسطه تعارف بيننا والآن أحب أن أسألك ما إذا كان وقتك الثمين يسمح بإعطاء بضعة دروس فى العربية لطلابنا . ونكون سعداء جدا لو تفضلت وقبلت »

استاذ للغة العربية ! وقتى الثمين ! ماهذا العبث كله ؟ أحالم أنا ؟ أبى جنة ؟ أم أنا محموم ؟ لا ، لا هذا ولا ذاك . هذان الرجلان القاسيان متآمران على ، يهزآن من ضعفى . ثارت ثائرتى وصممت على تحديهما وليكن مايكون . وأجبته أنا بدورى « هذا شيء بسيط ووقتى الثمين يسمح لى بذلك » فشكرنى وسأل متى أستطيع البدأ فى العمل . قلت اليوم وأنبّت نفسى أنى لم أقل الساعة

فقال : « حسناً إذاً إلى الساعة السابعة مساء » وحدد لى الأجر وودعنا إلى السلم . فهزنى رئيس الجمعية العربية من كتفى متهللا وأخذ يدى بين يديه وقال : « مبروك » عدة مرات واستأذن منى .

وكانت الساعة الحادية عشرة ووقفت بجانب سور الجامعة الخلفي وأخذت أستعرض حوادث هذا الصباح وأحسست رأسي يغلي . وقلت فيم العودة إلى غرفتي وليس فيها ما يسر أو يسلي وخفت دموع فراو زور وتنهداتها ورأيت أن أبقى في هذه المنطقة حتى الموعد المضروب لأتحقق أني في يقظة وأن عقلي لا مساس به ودرت أتسكع هنا وهناك وأقول بصوت عال : أستاذ اللغة العربية في جامعة برلين لقب لا بأس به . هل يسمح وقتك الثمين ؟ وأضحك ضحكات جنونية مسموعة . وأخذ مني التعب مأخذه ففكرت في أن أجلس في حديقة الجامعة هنيهة وعدت فنهرت نفسي كيف يليق لأستاذ اللغة العربية أن يجلس في طريق تلامذته واستحثثت الوقت ولكنه لم يشفق بي واعتصمت بالصبر مرات وأخذت مجلسي على مقعد قريب ولم أذق طعاما ولا شرابا في يومي حرصا على القليل من المال الذي كنت أملكه ، وشددت القبعة على رأسي حتى أخفي وجهي عن تلامذتي . وأخيرا جاء الموعد ودخلت مدرسة اللغات الشرقية متثاقلا في مشيتي لا عن تعب ولكن عن تصنع فقادني أحدهم إلى غرفة التدريس ووجدت نفسي بين السبورة وبين الطلبة فكدت أفضح نفسي وأصيح « أيها الناس لست مدرسا ولم أكن في حياتي مدرسا ، ماذا تريدون بي » ولكني استجمعت قواي مرة أخرى ودرت دورة بين الصفوف . وتناولت من أمام الطلبة كراسة بعد الأخرى وأخذت أقلب فيها . وأخذت فكرة عن معلوماتهم وعما يتعلمون وعدت إلى مكاني وابتدأت في التدريس وكأن وحيا نزل علي من السماء أو فيضا إلهيا . فانطلقت ألقي درسي بلباقة وتسلسل وبدون توقف حتى آخر الساعة ولاحظت علامة السرور والإعجاب مطبوعة على الوجوه فسلمت وأردت الانصراف فاستوقفني أحد السامعين وهنأني باسم المدرسة وقدم لي نفسه ،

الدكتور « ن » زميل مستشرق نرويجي ويدرّس العربية كذلك وقال فيما قاله أن الأدارة أرسلته ليكتب تقريره عني ولكنه سيحضر حصتي بدون انقطاع للاستفادة . وقد برّ بوعده طول مدة عملي. وأخذت طريقي إلى فراو زورنشطا كأن لم يكن بي شيء من آثار التعب وشرعت أدندن طول الطريق وقلت أرخ يا ولد هذا التاريخ السعيد في حياتك ففيه قد ضمنت لأول مرة رزقا ثابتا .

واستبشرت بغرفة فراو زور فلم أشأ تغييرها طول مدة عملي في الجامعة . وتعلق بي الطلبة ، وأدنيتهم مني ، ورفعت إدارة الجامعة عدد حصصي من أربع حصص في الأسبوع إلى اثنين وعشرين حصة وفتحت لي الصحف والمجلات أبوابها .

وحدث الانقلاب النازي المشهور فلم أحس به وزاد دخلي على نفقاتي فاقتصدت شيئا منه وفي أواخر ابريل من عام ١٩٣٣ فوجئت بفصلي دون إبداء الأسباب ، ودون تعويض . وحاولت أن أعرف السبب فعبثا حاولت وكتبت لهتلر أكثر من كتاب وجاءتني ردود منه ، واتصلت بوزارتي الخارجية الالمانية والمعارف مما سأفصله بعد ، وهكذا عدت مرة أخرى للتشرد ، وهكذا كلما بسم الدهر لي مرة عبس لي مرات ، وكلما ذللت صعوبة تعثرت في صعوبات . . .

سخرية القدر

برلين في مايو سنة ١٩٣٣

. . . . . واشتد تبرمي بالناس فقاطعت الغريب منهم والقريب ولم أكتب لأحد ولم يكتب لي أحد . وآنست حياة الوحدة . وجاءتني ذات يوم في عزلتي هذه بطاقة ، عبثا حاولت معرفة خط كاتبها . وكم كانت دهشتي عظيمة عند ما وقفت على محتوياتها . السيدة الدكتورة برجمان عضوة عصبة توثيق العلاقات

بين ألمانيا والشرق ترجوني أن أتناول الشاى عندها عصر يوم الخميس المقبل . تريد استعادة كتاب لها عندى وأن تستشيرنى فى أمر يهمها .

« حقا لقد نسيت أن أعيد اليها كتابها « بركة الأرض » ومنْ من الناس فى مكانى لا ينسى ! ووجدت من السخرية أن تسألنى النصيحة ! ! نصيحة من لا رأى له ، ممن هو نفسه فى حاجة الى نصيحة ، وهممت أن أعتذر عن قبول دعوتها وأبعث لها بكتابها بالبريد ولكنى تذكرت فى آخر لحظة حكاية صديق س . الذى تخصص فى طب الجراحة وعين مديرا لاحدى المصالح . وذكرت حكايات كثيرة تماثل هذه الحكاية كان فيها النجاح مؤكدا كلما ابتعد الانسان عن المهنة التى تخصص فيها .

وعلى ذلك قررت أنا المشرد عضو جماعة المؤمنين بالعجائب أن أقدم النصيحة اللازمة للسيدة الدكتورة عضوة شرف كذا وكذا من الجمعيات العلمية ، وألا أجبن وأعتذر بل أزورها فى قحة وجرأة

وأهّلت بى كعادتها وجلسنا على مائدة الشاى نتجاذب أطراف الحديث وكنت أنتظر فى قلق ما تريد معرفته منى . وفجأة أدهشتنى بسؤالها « أتعرف ابنتى الفريدا ؟ »

فأجبتها معتذرا : « معذرة ياسيدتى ، لا ، لم أتشرف بعد بمعرفتها ! » فقصت على أنها تعمل فى إدارة شركة فيلم « أوفا » وأن الشريط المقبل سيعمل فى مصر وأن ابنتها راغبة فى انتهاز هذه الفرصة لزيارة أم المدنيات وباعثة الحضارة فى العالم . وهى تجيد عدة لغات ولا ينقصها إلا العربية . وأخيرا سألتنى رأيى عما إذا كان من الضرورى أن تتعلم العربية فى حالة ما إذا كانت ستقيم طويلا فى مصر فأجبتها متهربا ومظهرا قليلا من الاكتراث أن من الممكن أن تعرف شيئا من اللغة

فى الأربعة الأشهر الباقية على سفرها إلى مصر ولو أنى أرى أن تعلم اللغة العربية فى بلد دولى كمصر غير ضرورى ، واتفقنا على أن أفكر فى إعطائها دروسا خصوصية .

ولم أفكر بعد ذلك فى الأمر حتى طلبت يوما على التليفون فاذا الآنسة الدكتورة برجان تدعونى اليها لتناول الشاى عصر اليوم وأردفت سؤالها : « طبعا إذا سمح وقتك » فقلت بدون تفكير : « أنا شاكر لك دعوتك ، وليس لدى اليوم ما يمنعنى من قبولها . »

وعذلت نفسى لقبولى هذه الدعوة . أليس لدى من مهامى ما يكفينى وهل أنا فى حالتى الراهنة كفء لأعطاء دروس ؟ وملابسى ؟ سروال يلمع كالمرآة ورباط رقبة أشبه بحبل بال . مجرد السير بها فى السبل يسبب لى آلاما جسيمة . ترى لماذا قبلت هذه الزيارة ؟

وقادتنى الأم والابنة الى بهو أعد فيه الشاى ، وأخذت مجلسى بين الأم والابنة وجرت بيننا الأحاديث العادية ، ولكنى لا أدرى أكانت أجاباتى تتفق مع أسئلتهما أم لا تتفق ؟ كنت أحدق فى صحنى مشرد الفكر . وكنت أعود إلى صوابى فى كل مرة أرفع فيها رأسى فأنتبه إلى أنى جالس بين سيدتين لهما حقوق على . فقد كان رأسى فارغا حتى أنى لم أعر حضور الفتاة أى التفات . ولو أنى رأيتها فى الطريق بعد ذلك لما عرفتها . ووافقت على اقتراحهما آليا ، وذلك أن أعطى الآنسة ثلاثة دروس فى العربيه فى الأسبوع . وأعطيتها اسم كتاب لتشتريه على أن نبدأ الدرس الأول غدا .

وانقضى شهر كنت أذهب فيه اليها فى الموعد المضروب وانسل إلى الشوارع بعد انتهاء الدرس . ولم تترك فى نفسى أثرا ما ، فلم أكن فى حالة تسمح

لى بالتفكير فيها فقد كانت الأفكار متناثرة فى رأسى ، ولا هم لى إلا التفكير فى إيجاد حل لى من الورطة التى كنت واقعا فيها .

وسألتنى يوما بعد انتهاء الدرس : « أتحب الموسيقى ؟ » ولما أجبتها نعم ، دعتنى أن أعود فى المساء لتضرب لى ما أحب وأختار ، وحدث أن عدت فى مساء اليوم نفسه . وبعد أن تناولنا العشاء انتقلنا إلى غرفة الموسيقى . وعزفت على البيانو قطعا من باخ وبتهوفن ووقفت وراءها أقلب لها صفحات النوتة فأثار سحر لعبها فى نفسى شعوراً قديما كان منسياً منذ زمن أو مكبوتا ، فنبهت فىّ صورا جميلة وذكريات طيبة . واختفت فجأة من أمام ناظرى سنتا التشرد ، وعادت إلىّ مشاعرى .

أخذت لأول مرة أرقب الفتاة الموسيقية باهتمام فرأيت لها رأساً دقيقاً كأنما هو من صنع نحات ماهر عقدت عليه شعرها الأشقر وبدا لى كأن انعكاس شعرها الذهبى يذوب مع نغمات الموسيقى ، وانتهى التوقيع ولكن هذه الصورة الجديدة وهذه الاحساسات لم تمح . ملأت « الفريدا » قلبى شكرا فكان لزاماً علىّ أن أحدثها عن تأثير ضربها البديع فى نفسى وكيف أنه أسعدنى

فأجابت : هذا ممكن . أنا أجيد الضرب ولكننا الآن فى حاجة إلى تعاطى بعض المرطبات .

وكان الوقت متأخرا عند انصرافى . والعجيب أن سرورى قد طار فجأة وأنا فى الطريق إلى الدار ، وأحسست اختناقا فى حلقى واضطررت أن أصارع من أجل الهواء . وتغلب علىّ قلق مجهول ودخلت غرفتى وحاولت ان أعيد إلىّ توازنى بالقراءة فتناولت كتاباً بعد الآخر وعبثاً حاولت . كانت الحروف ترقص امام عينى . ولم أكن لأعى شيئا ، واتقد رأسى وكأن حلقى قد شد بحبل

فنهضت واقفا واتكأت على الحائط ، وكان قلبي يدق بشدة ففتحت النافذة حتى لا أختنق وذرعت الغرفة جيئة وذهوبا ولكن شيئا من هذا لم يخفف عني

فقلت في نفسي : « لا بد أن أكون مريضا . ولم أعد أطيق غرفتي ساعة حتى ولا دقيقة واحدة . إلى الخارج ويستوى عندي أي مكان .

جريت من الدار مسرعا إلى ميدان بوتسدام وضايقني الناس الذين كانوا يمرون بي ويقابلونني ووددت أن لا أرى أحدا . وعلى ذلك اتخذت في عودتي سبلا مظلمة ودقت الساعة اثنتين ، الآن إلى الدار ؟ مستحيل فحسبت نقودي ودخلت في محل عمومي . وفي الساعة الثالثة ذهبت إلى داري محطما منهوكا ولم يغمض لي في هذه الليلة جفن ، وتملكني شعور الاختناق طول الليل . وأخيرا ظهر نور النهار في الغرفة فحمدت الله أن أصبح الصباح فأسرعت بارتداء ملابسي وأخذت أتجول عن غير قصد ساعات طويلة في « التيرجارتن » وكم وددت لو عرفت ما بي . أو كنت مريضا ؟ طبعي أني كنت أحس بالضعف لسوء التغذية ، ومع ذلك فقد بقيت طول الوقت معافى . أو لعلي فقدت صوابي ؟ ولكن شيئا جديدا من التغيرات في حالتي لم يحدث ، فلم أجن فجأة ؟ وكان الهواء نقيا كما كانت أوراق الشجر تهتز في الريح ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان فوق صدري حمل بعير من الهم والأسى حتى كان يتعذر على التنفس وكنت كمن بعث من الموت فكان على أن أكافح من أجل الحياة .

وفي الساعة العاشرة قررت العودة لأن الدرس كان يبتدىء في منتصف الثانية عشرة . وقلبت هذه المرة في كراستها فأدهشني خلوه من الغلطات فلم تنس الآنسة الدكتورة حرفا ولا نقطة .

فقلت لها عند ما أعدتها اليها . « حقا انك لموهوبة أيتها الآنسة الدكتورة »

فأسرعت بالجواب :

« ان استعدادى ليس فى الدرس فقط . أنا مبتكرة ، مبدعة ولو فهمنى الجيل الحاضر لشنقت نفسى وسأكتب كتابا لن يفهمه الناس إلا بعد مائة سنة »

فصمت فى قلبى الممزق . أية امرأة هذه التى أمامى ؟ أمغرورة مدعية أم ذات مطامع ؟ أو ترى هى انسانة ذات مواهب غير عادية تحسها ؟ ألم تبرهن على ذلك كفايتها وعملها ، ولكن لو صدق ذلك فإنى لا أوافق على طريقة مدحها لنفسها .

فقطعت علىّ تأملاتى : « سيدى المعلم ، لقد وعدتنى فى الدرس الفائت أن تعطينى جملا لأكملها ، وهأنذا قد حفظت درس الصفة (الخبر) فما رأيك فيه اليوم ؟ » .

« حسنا تفضلى وأكملى : البنت . . . »

وبأسرع من البرق أجابت : موهوبة جدا جدا جدا »

« هاتى صفة أخرى ! ، البنت . . . »

قالت ضاحكة . « يظهر أن الجواب الأول لم يرق عندك وأحب أن أرضيك وعليه البنت قبيحة جدا ! ها ، ها ، ها ! »

صمت مرة أخرى ، ما أعجب هذه المرأة . ثم استأنفت الدرس :

« للرجل . . . »

فأكملت الجملة وقد احمرت وجنتاها « أسنان جميلة »

« هاتى جوابا آخر » . « ويد رفيعة » وزادت بذلك احمرارا على احمرارها .

وعلى هذا النحو انقضت الساعة . ولما نهضنا من الكراسى قالت لى ضاحكة « انك لتعب معى جدا » .

واستعدت الحديث كله فى طريقى إلى الدار وسألت نفسى : « أحقا انها جميلة وموهوبة ؟ جميلة ، جميلة ؟ حتى أستطيع الحكم عليها ، يجب أولا أن أدرس تقاسيم وجهها وقدها وحركاتها تمام الدرس . وعلى أيضا أن أقرأ لها شيئا وأن أتناقش معها ، ولكن لماذا أشغل نفسى بها فجأة ؟ لتكن حسناء أو لتكن قبيحة ، موهوبة أو غير موهوبة ، ماذا يهمنى ! ان لدى أهم من ذلك لأفكر فيه ، وما معنى هذا القلق ولماذا أرانى مضطرا للسير فى الطرقات أشير بيدى كما لو كنت أريد إقناع بعض الناس » .

وهكذا انصرم اليوم . هى حسناء موهوبة . هى قبيحة جدا وغير موهوبة هذه بداية مرض شديد . وحسبت أن الوحدة ، واحتباسى بين أربع حيطان يوما بعد يوم والاهتمام بالحصول على رزقى اليومى عما أنضجنى للنزول ضيفا على دار المجانين . وحتى أصرف نفسى عما أنا فيه قررت أن أختلط بالناس ، ولكن بمن أختلط فقد كنت فقيرا كذلك فى هذه الناحية ؟

* * *

ولم أكد آخذ مجلسى فى غرفتى حتى سرحت فى عالم الأحلام ، فشغلت الفتاة رأسى وظل شغلها يتصاعد ويتزايد حتى رأيتها رأى العين تجلس بجانبى وكانت جالسة كعادتها إلى يمينى كما يجلس الطفل المجتهد المؤدب ، وتمنيت أن ألمس رأسها وأمسح بيدى على شعرها ، وغالبت هذا الشوق فغلبنى فرفعت يدى بالفعل فتنبهت غاضبا من شدة الألم ، فقد اصطدمت بالكرسى الخشب . أنا أجلس وحدى فى غرفتى الموحشة الميئسة فضحكت :

فعدت أتمشى قلقا فى غرفتى حتى أنهكنى التعب فرقدت مستيقظا وبعد بضع دقائق غرقت فى حلم اليقظة وسمعت هذه المرة صوتها ، سمعت توقيعاتها لبتهوفن

وسمعتها تدعوني اليها لأقلب لها صفحات « النوتة » فوثبت مسرعا من رقدتي فاصطـــدمت بالمغسل ففركت عيني ، ونظرت في المرآة ، فرأيت وجها أصفر قد بلله العرق :

الآن وضح لي كل شيء . أنا محموم لاعجب ، فقلة التغذية ودوامتها قد أضعفت في جسمي قوة المقاومة فأخذت حبة من الكينا ودخلت في سريري فنمت وتيقظت ونمت وربما تكرر ذلك مائة مرة في هذه الليلة : وفي كل مرة كنت أنازع نفسي وأتنازع معها في جمال الفتاة وقبحها ؟ أسلّم ناره ، وأرفض أخرى ثم أقهقه من نفسي

وقلت في نفسي : « لماذا لا تأخذ هذه النعجة على درسا كل يوم بدل ثلاث مرات في الأسبوع ؟ هي تصر على تعلم العربية ، وكلانا لديه متسع من الوقت . وبين الدرس والدرس وقت طويل » :

الخطـوبة

برلين في مايو سنة ١٩٢٣ . . .

وكم كان يحز في كبدي أني عاجز عن دعوة الآنسة إلى ، لأردّ لها يدا من أياديها علي . فقد كنت أتناول عندها الشاي ثلاث مرات في الأسبوع فضلا عن دعوتها لي من وقت لآخر لمشاركتها في طعام العشاء ، أو الغداء . ولم تسمح لي ظروفي القاسية باستزارتها . وليس في الأمر سر فيدي كانت خاوا من المال وغرفتي كانت ضيقة ومؤثثة بأحقر الأثاث لذلك قررت اشباعا لهذه الرغبة الملحة في نفسي أن أدخر من طعامي بالتدريج خمسة ماركات (مايقرب من ٢٥ قرشا) لأتمكن من دعوتها في أحد المقاهي .

ولما ذهبت إليها في موعد الدرس فتحت لي « الفريدا » الباب وهي تبتسم

ولكنى لم أقصد كعادتى إلى غرفة المكتب بل بقيت مكانى واقفا فى الباب أراقب الفتاة وأحدق فيها من رأسها إلى قدمها وكانت ترتدى ثوبا بسيطا أزرق ذا أكمام طوال يتناسب فى بساطته مع بساطتها وتميزت لون عينيها لأول مرة فقد كانتا خضراوين يشعان سحرا وذكاء ، أعجبنى فى « الفريدا » كل شىء .

فقلت فى ارتباك ، وهى تلتفت إلى متسائلة : « أعجبنى ثوبك كثيرا أنا أحب كل شىء بسيط » .

فضحكت قائلة : « ولكنك رأيت علىّ هـــذا الثوب أكثر من مرة ، لقد صنعته بنفسى طبقا لتصميم وضعته أنا . ولست وحدك الذى يعجب بذوق . » وعادت تضحك ضحكات الأعجاب بالنفس السخيفة .

وحسبت أنى محموم ، فلم أك أعى بعد ما أقول ، ورأيت أن أكبح جماح نفسى بل ألجمها حذر أن يصدر منى سخف أو هراء فمن يدرى ؟ .

وجلست جامدا كالمسمر على كرسى فلم ألتفت يمينا ولا شمالا ولا سألت عن شىء ، وكانت إجاباتى قصيرة ومقتضبة وفى كل مرة كنت أحس فيها بضعف أكافح ضده بكل ما فى من قوة ولم يكن ذلك بالسهل على . وخفت الهزيمة فأخرجت ساعتى من جيبى فظهر أن ساعة الدرس قد انقضت فاعتذرت وهممت بالانصراف .

فقالت وكأن رجاءها قد طاش . « ابق قليلا . ألم تنم الليلة جيدا ؟ »

فتمتمت : « نمت ملء عينى ، أشكرك ! »

وانقضى علىّ أسبوعان فى قلق وكفاح ولم أستطع فيهما أن أتبين حقيقة مشاعرى وفى كل مرة كنت أذهب إليها للدرس أصمم على دعوتها فكانت تخونى شجاعتى وأخيرا لقيتها يوما مرحة مسرورة معتدلة المزاج فتجرأت على

سؤالها عما إذا كانت تتفضل بقبول دعوتى لها فى أحد المقاهى لتناول الشاى معى

فأجابت على نفس لم ترده : « بكل سرور ، فلنحدد الوقت الآن ، وليكن فى الساعة الخامسة عند الساعة القائمة فى ميدان « فنتر فلد » فكدت أجن من فرط الفرح وهرولت إلى الدار لأعد نفسى للموعد المضروب . وقفت أمام المرآة أتفقد ملابسى قطعة قطعة ، وسويتها بقدر المستطاع ورجوت صاحبة الدار أن تكوى لى رباط الرقبة ، وغيرت ياقتى مرتين . ثم أردت أن أطمئن على وجود القطعة الفضية الثمينة ذات الخمسة المركات التى اقتصدتها من طعامى منذ أسبوع فوضعت يدى فى جيبى — فلم أجد شيئا ! تفقدت جيوب السترة والسروال بعد جيوب الصدار — فلم أجد شيئا ! قلبت جيوبى مرات ظهرا لبطن فلم أجد شيئا ! بحثت فى أوراقى ، بحثت تحت الأرائك ووراء المساند ، فلم أجد شيئا . أعدت البحث والتنقيب فلم أجد أثراً لكنزى الذى ادخرته لهذا اليوم يالله ! سرقت ! سرقنى الأوغاد ! ياصاحبة الدار ! أيها الجيران ! ليس من المروءة فى شىء سرقة رجل فى مثل حالى ! جريت من الدار يائساً غاضباً أسب وألعن ، راجياً أن أجد نصيحة أومساعدة عند بعض الأصدقاء ، ولكن أحدا منهم لم يكن مستعدا لأقراضى شيئا وضايقونى جميعا بأسئلتهم . « أعندك خادم فى الدار ؟ هل يدخل أطفال فى غرفتك ؟ هل بحثت فى ملابسك الأخرى ؟ »

آه لو لم أكن قد دعوت الفتاة ! لم يبق أمامى إلا طريق واحد للخلاص من هذه الورطة . ولما هدأت أعصابى بعض الشىء كتبت لها كتاباً اعتذرت لها فيه عن عدم مقدرتى على الحضور فى الموعد المضروب لأمر هام طرأ على — ورأيت أن أرسله بالبريد المستعجل ليقع فى يدها فى الوقت المناسب وسحبت محفظة نقودى (!) من جيبى لآخذ طابع بريد وما أمسكتها بيدى حتى أحسست شيئا

جامدا يتحرك تحت أصابعى هنا وهناك فقبضت عليه متشوقا وفتحتها فإذا بالقطعة الفضية ذات الخمسة المباركات وقد لفت بعناية ودقة فى ورقة بيضاء نظيفة وكانت من المسكوك حديثا فكاد وهجها يلهب بصرى .

لم يكن هذا شحا منى ، فوالله ما عرفت يدى القبض فى الغنى أو الفقر ، ولكنه الحرص على الكرامة فقد كنت أذوب خجلا كلما فكرت فى عجزى عن رد جميل الآنسة بأجل منه .

وقبل الموعد بعشرين دقيقة كنت واقفاً عند الساعة . وبدت هذه الدقائق العشرون دهراً . ولكنها عند ما هلت أخيراً ، لم أكد أتعرفها إلا عن قرب ، ذلك لأنى لم أرها قبل ذلك فى معطف وقبعة . أقبلت على مسرعة فى خطوات ثقيلة فلم يكن فى خطواتها شىء من دلال الأنوثة وشبهت لى حركاتها فى أقل من لمح البصر بحركات الراهبات .

واخترنا « حلوانياً » قريبا ، وجلسنا هناك وحدنا فى زاوية شاغرة وبقينا مدة طويلة من الزمن صامتين ، وأخيرا رأيت أن أحطم حصن الصمت الذى تحصنا فيه عن غير قصد ، فشرعت أحدثها عن مصر ، عن متاحفها وآثارها . عن نيلها وأهراماتها ، عن سمائها وشمسها ، ثرثرت كثيراً ، ويعلم الله ماذا قلت وعرجت فى حديثى على السحر وعلم الفراسة وقراءة الخط . وهذا حديث طريف يجد السمار فيه دائما مجالا للأخذ والرد ولم تكن رغبتى بعد أن تغلبت على جو الصمت الذى لزمنا فترة طويلة إلا أن أسمع صوت « الفريدا » وأن أحدق فى عينيها الحلوتين وأن آخذ يدها بين يدى ، ولو سألتنى نظير ذلك نصيبى من الفردوس من حدائق وقصور وحور عين وغلمان مما لم تره عين ولم تسمع به أذن لتنازلت لها عن كل ذلك عن طيبة خاطر ، و لكن كيف السبيل

إلى ذلك ؟ وحذرت ذلك فى نبراتى وفى نظراتى فسألتنى مبتسمة « كعهدى لا بد وأنك تجيد قراءة الكف ؟ » .

فقلت فى تؤدة العلماء المعتزين بعلمهم طامعا فى هذه الفرصة الفريدة : « طبعا لقد درست هذا العلم سنين طويلة . ومع كل ذلك فأنا لا أصدقه إلا إلى حد محدود »

صمت . . وانتظرت أن تمد لى يدها . ولكن شيئا من هذا لم يحدث فكان على أن أستجمع قواى لخطوة أخرى .

« لو أنك لاحظت يدى الشمال مثلا ، لرأيت هذا الخط الأفقى يمتد تحت أصبع البنصر ، وهذا ما يسمونه خط الشهرة ! وهذا الخط الذى يمتد . . »

فقاطعتنى . « خط الشهرة ؟ » واتسعت حدقتاها وأسرعت تنظر إلى يدى ثم نظرت إلى يدها . فرجوتها أن تعطينى يدها لأرى الخطوط بنفسى ، ووعدتها أن أشرح لها كل شىء . ومددت يدى فدافعت عن نفسها : « لا ، لا ، قل لى شيئا عن الخطوط وارسمها لى وأنا أرى بنفسى ما كتب على » .

فقلت متهكما « ولكن النظريات وحدها لا تكفى أيتها الآنسة الدكتورة ففى كل يد توجد تعرجات دقيقة ، ولا يمكن التفريق بينها وبين بعضها إلا بعد دراسات طويلة ، ولو صحت نظريتك لكان فى استطاعة كل واحد أن يشترى كتابا فى الطالب أو الحقوق ويكتفى بقراءتهما ويصبح بعد ذلك طبيبا أو حقوقيا » .

« دعنى الآن من علم الكف ، أنا لا أصدق إلا فى علم تفسير الخطوط وعلم الفراسة.

« حسنا ! استخدمى علم فراستك وقولى لى شيئا عنى ! »

« ذو إرادة حديدية » ثم توقفت ، ثم استأنفت الكلام قائلة : « ألا يكفيك هذا ؟ »

« لا ، هذا لا يكفيني وما قلته لا يثبت علما »

« لحظة سأطلع عليك بعلمي ، أنت في كفاح مع نفسك وهذا ينم عنه وجهك وصوتك ونظراتك وحركاتك ولكنك لا تحب أن تسلم بذلك لأنك رجل قوى »

« كفاح ؟ كلنا في كفاح مع أنفسنا . لا ، ليس هذا والله يعلم »

فقالت بصوت خافت : « لعلك تحب زوجك في مصر ، وتتألم لفراقها »

« آسف ليست لي زوجة لا في مصر ولا في المانيا » وعلى ذلك صمتنا مدة طويلة ، وكانت في غضون ذلك تسارق يدها النظر من وقت لآخر

ثم سألت فجأة : « قل لي ، لماذا هذا الخط قصير ومتقطع في يدى ؟ »

« هذا مهم جداً . أرنيه » وأمسكت بيدها . آه ، لم يعد يكفيني أن أمسك يدها أنا أطمع ان أقبلها

فغمغمت تقول وقد حذرت ما في نفسي : « ليس في المقهى »

إذن فلنسرع من هنا ، وإلا فسأظل قلقا .

وحدث أن مالت على بدون أن ترفع عينيها إلى : « أظن أننا نستطيع أن نعمل معا في الحياة ، نحن نتفق في كثير من الأخلاق والمواهب ألا تظن ذلك ؟ »

« وفقري ! وحظي في الحياة الذى قضى على أن أضرب في الأرض شريدا طريدا ، ولم يترك لي بريقا من الرجاء في المستقبل ! الواقع أني سأكون عائقا في سبيل تحقيق مطامعك ، تدبري الأمر يا سيدتي . بودي ! وبودي أيضا أن لا أجني عليك ! »

فقالت بصوت ثابت صادر من القرارة : « لقد تدبرته »

وافترقنا في نفس اليوم مخطوبين . وودعتها إلى دارها بعد أن قبلت يدها قبلة ما زالت حلاوتها في فمي

بين الفصول

برلين فى يونيو سنة ١٩٣٣

نسيت أن أذكر أنى طلبت الى « الفريدا » أن تؤجل إعلان خطوبتنا أياما حتى أتدبر الموقف وأسيطر عليه ، فوافقت على رأيي ووعدتنى ما طلبت منها. ولما حان موعد الدرس التالى ذهبت إلى تلميذتى وخطيبتى فلقيتها متهللة مشرقة ، ودخلنا إلى غرفة الدرس كالعادة ولكننا لم نمسك هذه المرة كتابا أو كراسة وبعبارة أدق لم تتلق منذ ذلك اليوم درسا فى العربية ، وكانت تقول فى دلال إذا سئلت عن مدى تقدمها فى اللغة . لم تعد لى حاجة لتعلم العربية فانا أملك ابنا من أبنائها البررة . جلسنا بجانب بعضنا ، يبث الواحد منا للآخر حبه وآماله تارة وطورا يعتب عليه شيئا لم يعجبه منه فيما مضى . فعتبت على برودى وجمودى فى أثناء الدرس ، وأن برودى قد نغص عليها بعض الساعات فكانت تثور فى غيبتى وتصمم على مغاضبتى ، ولكنها كانت تضعف عند ما أجلس منها مجلس المعلم: وسألتنى عن يوم كذا ، وذكرتنى بموقف كذا ، وتكلمنا عن حياتنا المستقبلة وطريقة تنظيمها . وأرتنى لها رسائل كتبتها عن مصر قبل أن تعرفنى وأنها كانت حلمها على الدوام ، فارتعدت فرائصى وقلت لها « ولكنى لم أعد مصريا والرجاء فى رجوعى إلى مصر مقطوع » وغلب على الأسى فطأطأت رأسى فى ذلة وانكسار فمالت على كما تميل الأم على ولدها ومسحت رأسى بيدها وقالت : « ترانى آلمتك ؟ وماذا تهمنى مصر مادمت معى ؟ وهل كنت أطمع أن أنال من مصر ما نلته اليوم . أنا سعيدة بك ، سعيدة جدا ، لا تتجهم ، عد وابسم . . . »

وكنت حريصا على مواعيد الدرس فلما جاء الوقت : « أستطيع أن أراك اليوم مرة أخرى ؟ » قالت « نعم » وفتحت الباب الفاصل بيننا وبين غرفة أمها

قبل أن تقول لى كيف أقابلها وكانت العجوز فى الانتظار فقرأتها السلام فردته بصوت المذبوح وقالت : « أريد أن أتحدث معك وحدك » ففهمت أن الواقعة قد وقعت وأن « الفريدا » لأمر ما قد باحت لها بسرنا ، فتهيأت للنضال ، وأشارت العجوز إلى كرسى قريب منها فأخذت مجلسى عليه ، وانتظرت لأسمع منها ، وظلت صامتة فترة طويلة فازدادت رهبة الموقف ، ثم قالت لى ولم ترفع عينيها إلىّ « لقد حدثتنى الفريدا بما دار بينكما ، نحن لا نعرفك . ومن تكون أنت ؟ »

وكأن السماء قد هبطت على الأرض ، حسبت كرامتى قد مست . وتغلب على « مركب النقص » فامحى حب « الفريدا » فى لحظة واحدة وأردت أن أثأر لعزتى ولو كلفنى ذلك رأسى ، لا . بل حتى ولو فقدت « الفريدا » إلى الأبد ، فقلت لها بدون تفكير وعلى نفس لم أشهقه : « أيتها السيدة الدكتورة لو قلت لك أنا فلان ، كنت فيما مضى كيت وكيت ، فما صنعت شيئا لأن ما فات مات وإذا قلت لك سأكون كيت وكيت فدعوى يستطيع أن يدعيها كل انسان . ولكنى إذا كنت مخلصا فعلى أن أقول لك من أنا اليوم ، الآن . » وهنا علا صوتى . « أنا الآن صفر ، فهل لكما أن تقبلانى على حالى هذا ، صفر ! لا شىء !! »

صمتت العجوز صمت الحيرة لا التفكير . أخذت . وكأنها رغم تجاربها وعلمها لم تكن تتوقع هذا التحدى . فتخيلت أنى انتصرت عليها ، والظافر لا يشفق على غلبة المغلوب . بل يزيده الظفر جبروتا على جبروته فقطعت عليها صمتها « لم يحدث بينى وبين ابنتك غير وعد بريء هى فى حل من فكاكه الساعة » فاهتز جسم العجوز ومدت إلى يدها مرتعشة « اليك يدى ، رضينا بك على ما أنت عليه ولن نسأل عنك أحدا ، وتقبل بركتى ، ولدى ، لا تحمل لى ضغنا فى صدرك لما بدر منى ، أنا أحب وحيدتى الى حد العبادة ، وليس لى فى الدنيـــا

غيرها، وكنت أجهلك ، والآن، الآن فقط عرفتك ـ وإنى لفخورة بك . وسأقوم من الساعة بأعلان خطوبتكما لأفراد العائلة . لا تذهب، ابق معنا ففرحى لا يقدر .»
وجاءت « الفريدا » فقبلنا بعضنا لأول مرة فى السر والعلانية

عاد القدر الساخر اللعوب فبسم لى وأمدنى بقوة لا يستهان بها، فقد أصبحت أحب وأحب ، وكنت سعيدا فى حبى ، فخورا بعروسى كبير الرجاء فى المستقبل فقد خلعت على « الفريدا » حياة جديدة . تبخرت همومى مرة واحدة ، فنسيت معها شقوتى وآلامى وعاودنى المرح والتفاؤل ولم يبق امامى إلا الكفاح من أجل العيش وهذا ليس بالجديد على وأنا أقوى عليه الآن من ذى قبل . فقد كسبت رفيقة بجانبى يمكننى الاعتماد عليها . ولم أكن فى حاجة للتفكير فيما عساى أن أبدأ به ، فقد كنت فكرت فى كتابة كتاب وبدأت العمل فيه بالفعل من اليوم التالى

أيها الناس أنا قوى ، أنا أقوى من عرفتم . ايها المحبون أنا سعيد . أنا أسعد من أحب ! هكذا كنت أحس .

« نعم كلانا معدم ، ولكن هذا ان يكون عائقا فى سبيل حبنا ، فأنت كفو مثلى . وأنا واثقة أن لا بد وأن يكون لنا شأن . » هذه كانت كلمات « الفريدا » الأخيرة قبل خطوبتنا . وقد أثرت فى كرقية السحر . وتجدد الرجاء فى نفسى ، فكنت أصحو كل يوم مبكرا فأجلس إلى مكتبى لأعد مادة أمليها فيما بعد على خطيبتى لتنقلها على الآلة الكاتبة وهكذا قضيت شهوراً طويلة ـ لا بل ما أقصرها ـ فى انتاج مستمر

كنا نلتقى فى الضحى فى دارها فنكتب معا حتى الظهر ونفترق على أن نلتقى عصراً فنقرأ ساعتين ثم نخرج للرياضة ونعود إلى دارها أو دار أحد أقاربها فنقضى سهرة ممتعة فقد كان بيتها بيت علم وفضل وقد شاع أمر الخطوبة ولها

أعمام وعمات وأخوال وخالات منتشرين فى برلين وخارج برلين ، وكان على كل واحد منهم أو واحدة ان تؤدب مأدبة بل مآدب وأن تقدم لنا الهدايا كل على قدر طاقته

وأحسست يوماً من الايام بشىء من التعب . وكان الجو على غير عادته فى هذا الشهر ، فاترا . ولم تقو ساقاى على حملى إلى المطعم الذى تعودت الأكل فيه ، ورأيت مطعما صغيراً فدخلته . وكم كانت دهشتى عظيمة حين وجدت الأثمان فيه رخيصة مع جودة طعامه . فقد أكلت فيه بشهية لم أعرفها منذ زمن طويل . ولما أردت الانصرف وقع نظرى على لوحة مكتوب عليها: « الاشتراك فى عشر وجبات خمسة ماركات بدل ست» أى حظ موات هذا ! اقتصاد مارك مع ضمان الغذا ، لعشرة ايام . فأسرعت بشراء دفتر اشتراك وتسلمته ووضعته فى جيبى وانصرفت .

وقصدت المطعم فى اليوم التالى ، وأردت ان أستوثق من دفتر الاشتراك فى الطريق فوجدته ، وقلبت فيه لأول مرة فإذا به مكتوب فيه «البقشيش وقدره خمسة فنجات - أى نصف قرش - يدفع عند كل وجبة - وكم كانت خيبتى عظيمة عندما اتضح لى أنى لا أملك إلا أربعة فنجات ! ! سخرية من مساخر القضاء ، أملك عشر وجبات ولا أستطيع أن أحصل على واحدة منها لأنه ينقصنى فنجان واحد ! ! وكم كنت أفضل لو أعدت دفتر الاشتراك فى الحال إلى صاحبه ولو خسرت نصف قيمته ، ولكن شيئا من هذا لم يكن فى الاستطاعة . ففكرت طويلا فذكرت أن لدى طابع بريد للخارج قيمته ٢٥ فنجا فذهبت إلى دار البريد وقصدت شباكا لم يكن واقفا عليه أحد : « معذرة هل فى الاستطاعة أن تستبدل لى هذا الطابع بنقود فأنا فى حاجة إليها » فتغيرت ملامح الموظف . وعبر عما كان يخالجه من مرارة لا أدرى سببها قال : « الطوابع المباعة لا يعاد بيعها إلينا » .

فاحمست الدم يثب إلى رأسى من الخجل وعدت جائما إلى دارى لا ألوى على شىء . وفى عصر ذلك اليوم قصدت كعادتى « الفريدا » وكنت ضيق الصدر حرجه ، فقالت لى : « يخيل لى أنك تعب بعض الشىء . دعنا نسترح اليوم فلا نقرأ شيئا . سأقص عليك ما صنعته فى فترة غيابك ، وتقص على بدورك ما صنعته فى فتره غيابى عنك .

فأجبتها : « لك ماترين . هات ماعندك ! »

فنهضت من جوارى باسمة وفتحت خزانة ، وأخذت منها صندوقة حديدية صغيرة فى يدها ، وسألتنى أن أحزر ما فيها .

فقلت : « وكيف لى أن أعرف ما فيها ؟ لعل بها إبرا وخيطا ! ! »

فعبست ثم ضحكت : « وهل أنا امرأة إبرة وخيط ؟ ! أو تحتاج إلى امرأة من هذا النوع لتخيط لك جواربك ؟ أنت تعلم أنى امرأة موهوبة ، موهوبة جدا جدا جدا . هل لم تدرك هذا بعد ؟ أو تراك نادما ؟ » .

فعالجت أن أصلح ما أفسدت : « أيتها الحبيبة ، إنما اخترتك لمواهبك ، وهل بين معارفك من ينازع فى ذلك ؟ أما مسألة الخيط والإبرة فلم يكن إلا دعابة ، ومؤكد أن بالصندوقة ريش كتابة من الذهب الخالص » .

ولم تعر مزاحى التفاتا ودست يدها فى الصندوقة وأخرجتها مطبقة على شىء ثم فتحتها فتساقط على أرض الغرفة قطع نحاسية من فئة الفنج الواحد فانتثرت فى كل مكان ، فوثبت من مكانى عن غير وعى كالمدوغ وأخذت أحدق مشدوها فى هذه الفنجات ، ثم أضحك ضحكات السخرية والاستهتار حتى أفزعنى ضحكى .

قالت « الفريدا » : « فتحت الصندوقة اليوم لمجرد المزاح ، وأحب أن أتخلص اليوم من هذا النحاس » وأخذت تلعب بأصابعها فى كومة النقود .

خمد كل شىء فى رأسى ، ولم أعد أر إلا الفنجات بين أصابعها .

وسألتها متلعثما : « ما معنى هذا ؟ وأنى لك كل هذه الفنجات ؟ » .

فقالت ضاحكة : « ألا تدرى أن الفتيات يجمعن هنا الفنجات ولا يمسسنها حتى يخطبن ، دعنى من هذا السخف ومن هذه الخرافات ، انتهينا ، أنا ذاهبة لأحضر ما كتبته فى غيبتك لأسمعك أياه » .

ولكن الفنج الذى . . .

واختفت الفريدا « من الغرفة » وذهبت إلى المائدة مترددا ، ووقفت جامدا بجوار الصندوقة ، وأخذت أحدق فى آلاف من الفنجان مكومة ومنثورة ، ثم أخذت حفنة فى يدى ثم تركتها تنساب من بين أصابعى ، وقلت فى نفسى لو نقصت هذه الفنجات واحدا (أى مليما) لما شعر به إنسان ! وكيف يثير فنج واحد حقير مثل هذا النزاع فى نفسى ! وبينما أنا فى كفاح مع نفسى ، إذا أنا فجأة أتناول الصندوقة وأمسح عليها عن غير قصد بيدى وأنحنى عليها ، وكأنى مدفوع بقوة خفية وأقبلها فى خشوع واحترام كما يقبل الحاج الحجر الأسود . وما انتهيت من قبلتى حتى دخلت « الفريدا » الغرفة .

أيتها الحبيبة ؟ حدثينى عن الفنجات . . . »

فقاطعتنى : « دعنا من حديث الفنجات السخيف ، واسمع لى ! »

وأخذت تقرا لى ما كتبت ، ولكنى لم أسمع شيئا ، فقد لزمتنى الفنجات ولم تفارقنى لحظة ، فلعنت حظى وهزأت من نفسى . أو ما كان فى استطاعتى أن أحصل على واحد منها على سبيل المزاح أو بأية طريقة أخرى ! آه ولكن كبريائى السخيفة حالت بينى وبين ذلك ، وسرعان ما وجدت حلا ومبررا لموقفى : « أليس الحب جوعا ؟ ألا يجد الإنسان لذة فى عذاب الحب ؟ ألا يجد المسلم متعة فى جوع الصيام ؟ فلم لا أجد أنا لذة ومتعة فيما أنا فيه من ألم ؟

وبدا لى أن هذه السفسطة قد أضعفت ثورتى ، وأن أعصابى أخذت تهدأ شيئا فشيئا حتى استطعت أن أفهم ما تقرأه لى ، وأن أناقشها فيه .

فرقة الى الابد

برلين فى صيف سنة ١٩٣٣

يالله كم كنت مفتونا بفتاتى! فزهوها بنفسها وجرأتها على الادعاء ووعيها غير العادى كانت مفاخر فى عينى . ولم لا أكون فخورا بها وبمواهبها ومقـــدرتها الخارقة ؟ كان بينها وبين الثلاثين حولان أو ثلاثة أحوال . ومع ذلك كانت فى حركاتها وسكناتها أشبه بطفـل بريء مجد . وبرر حاجتها الماسة للراحة حقها الغريب فى كثرة النوم ، فمتوسط ساعات نومها فى اليوم كان عشر ساعات على الأقل ، كانت تبذل كثيرا من ذهنها فى عملها ، فتستعيضه فى نومها ، بارك الله فى نهارها وليلها ! وأحببت بذل كل شيء فى سبيل توفير السعادة لها ، فأية قوة فى السموات أو على الأرض كان فى طاقتها أن تلئم جراحى ، وتمدنى بقوة الشباب؟ ألم تنسنى الفريدا غربتى ووحشتى وآلامى ؟ نعم ، أنا مدين لها بحياتى ـ ألم أصبح بها أسعد انسان على الأرض ؟ وأى إحساس عذب كنت أحسه وانا مكب على الكتابة والتفكير من أجلها وأجـــلى بينما هى غارقة فى النوم ! وأى حلم حلو كنت أحلمه فى اليقظة بجوارها وبعيدا عنها ! كانت أمنية نفسى ، وما الامانى إلا أحلام اليقظة ؟

وكم من مرة سامحت نفسى وقد كربنى الجوع وأنهكنى العمل : « ترى تدوم هذه الأيام الطيبة التى انتزعتها انتزاعا من بين أنياب الزمن الغشوم ؟ وهـذا الخط العظيم ؟ ألا يفدحنى حمله يوماً ما فأنوء به ، اذ لم يكن لى عهد بمثله حتى فى أيام فتوتى وجاهى ؟ »

ومضى على يوم لم أذق فيه طعام الغداء ولكنى لم أحس أثرا للجوع ، بل

كنت على العكس منشرح المزاج . وفى اليوم التـــالى جاءتنى نقود من « مس ماكسونج » فى أمريكا ، فاستطعت أن استخدم دفتر اشتراكى فى المطعم. وذهبت قبل الظهر كعادتى لألفريدا فقالت لى وهى ترد تحيتى : « ستبقى عندنا اليوم للغداء معنا ، فأمى قد دعت بعض أقاربها لتقدمك لهم » فابتسمت عن غـــير قصد وذكرت مثلنا العامى الذى يقول : « إذا أسعد الله الفقير رزقه وجبتين من الطعام فى ليلة واحدة » .

وانقضى يوم إثر يوم ، وأعقب الأسبوع أسبوع ، وتسابقت الشهور مع الأيام والأسابيع . وكأنى بالشهور قد كتب لها الفوز فما كنا نعرف لنا يوما ولا غدا . ولكننا كنا نسمع فقط من الذين حولينا ، الشهر الأول أو الثانى من الخطوبة ، وكما كان مرور الأيام يزيد كلينا تعلقا بأخيه كان مرورها كذلك يزيدنا قلقا واضطرابا ، أما هى فكانت تتطير من الخطوبة الطويلة . وتعتقد أن الفشل مكتوب لصاحبيها فى النهاية فكانت تلح على فى الاسراع بالزواج ، فكنت أعدها وأمطل ، فتعود فتلح وتلحف ، فأحدد لها موعدا جديداً بعد أن أكون قد هيأت له أسباب النجاح والإنجاح فأفشل ، فأتحمل لها الأعذار فتصبر على مضض ، ولم يكن لاضطرابها وقلقها من الوجاهة ما لاضطرابى وقلقى ، فدائى كان عضالا لا يصلح فيه تطبيب طبيب ، ولا مواساة كريم ، كنت مشردا منبوذا ، لا وطن لى ، كالصيد البرى دمه حلال لكل طالب صيد ، ولا حكومة لى . ولا سفير يحمى ظهرى ، ولا قريب ولا صديق يؤازرنى ، ولا رجاء لى فى عمل منتظم أستعين به على إعالتنا ، وشر من هذا كله أنى كنت أعلم أنى بمجرد عقد العقد على « الفريدا » تفقد جنسيتها آليا ، وإذا رزقنا أولادا قيدوا كذلك بلا جنسية ، و « الفريدا » عزيزة على ، بل أعز علىّ من نفسى ، ولا أحب أن

يمسها سوء فكيف أنسبب لها فى الأذى والأسى معا ، فكنت أماطلها تضحية منى وإيثارا لها ، لعلى أجد لى مخرجا .

فجددت مسعاى لدى الحكومة المصرية ، وكان وزير مصر المفوض فى برلين فى ذلك الوقت ذلك الرجل الألمعى « حسن باشا نشأت » فطلبت مقابلته ، ولم أكن رأيته من قبل . وكنت أحتفظ للرجل فى نفسى بصورة مشوهة رسمتها البروباجندا الحزبية فى مصر فى كثيرا من صدور الشباب ، فرفض سعادته مقابلتى معتذرا . أن أعفيه من المشافهة ، وأن أبثه شكواى كتابة ، والله يسأل أن يقدره على تخفيف بلوتى » ، فخرجت من المفوضية لاتكاد تحملنى ساقاى ، أتعثر فى أذيالى من الخجل ، ويغلى رأسى من الغضب ، وعددت اعتذار هذا الرجل الفاضل الذى كان مجرد حياء منه لا أكثر ولا أقل إهانة لا يغسلها غسول .

ولما بلغت دارى اجتهدت أن أضبط أعصابى ، وكتبت كتابا لأولى الأمر فى مصر وطلبت فيه إعادة النظر فى أمرى ، وقررت أنى على استعداد لتسليم نفسى للمحاكمة إذا كان هناك ظل من الشك فى مسلكى الأدبى أو السياسى . وبعثت به مسجلا برسم سعادة نشأت باشا . فجاءنى منه بعد أيام رد تنم عبارته عن الرقة والعطف على ، أخبرنى فيه أنه قد تلقى مظلمتى وقد أرسلها إلى الجهات المختصة مشفوعة بالتوصية اللازمة . فأعطانى هذا الجواب فى الحال صورة حقة عنه أزالت كل ماعلق بصورته من شائبة .

وأبقيت على حياء الباشا فلم أحاول مقابلته طول مدة إقامتى فى منفاى حتى زيارة النحاس باشا لبرلين مما سيأتى فى موضعه . وعلمت ان بين وزراء الدولة المصرية وزيرا يعرفنى ويعرف عائلتى جيدا ، وكان يتودد إلى كثيرا ايام كنت فى مصر فكتبت له ايضا كتابا خاصا رجوته ان يثير مسألتى . وبذلك

تجددت آمالى فى العودة إلى أرض الوطن وبت أرانى أسير مع « الفريدا » فى شوارع القاهرة .

ومضت الأيام تلو الأيام ، وأثارت الصحف المصرية مسألتى ولكن أحدا من رجال الوزارة لم يجرؤ أن يرد لى حقى وينصفنى . وفى غضون ذلك كانت « الفريدا » تسألنى البر بوعـــدى . ويطالبنى أهلها معها بالوفاء فكاشفتهم بالعقبات ، وسألتهم مهلة بعد مهلة : وأخيرا جاءت « الفريدا » فى صباح يوم مبكر إلى دارى لأول مرة وقالت لى « إنها لم تعد تطيق صبرا على هذه الحال » ومن ذا الذى يطيق صبرا أيتها العزيزة ؟ ! كلانا كان يتحرق شوقا إلى صاحبه ، فقد أضنى الحب والانتظار قلبينا . وقالت فيما قالته : إنها لا تستحق أن تكون زوجا لى إذا هى لم تشاركنى ضرائى وتتحمل معى آلامى ، وانها يوم اختارتنى زوجا لها كانت تعلم حقيقة موقفى . وعرضت على أن أصرف النظر مؤقتا عن مصر ، وأن نحاول معا الذهاب إلى أى قطر من أقطار الأرض وليكن الصين أو بلاد نيام نيام يستوى عندها الناس والمناخ . ولن نعدم وسيلة معا لكسب قوتنا وكنت مثلها مدلها ، فلم أزد على قولى « كذا ! » قالت « نعم ! كذا كذا قم بنا الساعة إلى دور القنصليات ! »

وترددنا أسبوعا أو أكثر على القنصليات الموجودة فى برلين فرفضت جميعها قبولى فعدنا إلى الأطلس ندرس بلاد الله فيه ، فوقع نظرنا على « العراق » وسمعت هناك استمارة ، وطلبوا إلى ضمانا قدره عشرة آلاف مارك ضمن فيها عمها ، وخرجنا من هناك وكلنا أمل فى قضاء شهر العسل فى عاصمة الخلفاء بغداد

وفى المساء جاءنى خطاب من القنصلية فيه أنهم آسفون لعدم السماح لى بالسفر

إلى العراق . وجدوا اسمى فى القائمة السوداء يا لخيبة الرجاء ! وهكذا قضى على آمالنا بين عشية وضحاها

وعجزت درر (الفريدا) عن إقناعى بضرورة عقد العقد فأنابت عنها لآلىء الدموع فحطمت قلبى المحطم وزادتنى خبلا على خبل ، فضقت ذرعا بكل شىء وأصبحت عصبى المزاج إلى حد خفت منه على نفسى. وأصابها ما أصابنى فعرضت على اقتراحا جديدا . أن نغادر العاصمة إلى أحد بلاد السواحل لنقضى هناك شهرا نستجم فيه ! بحياتى هذا الشهر ، لا بل يوم واحد مع الفريدا بعيدا عن الأهل والصحاب ولكن كيف السبيل ؟

ورأت الفتاة آية الذلة والحيرة مرسومة على وجه ذلك الرجل العاصى وأدركت سر آلامى فقالت فى رقة ولطف .

« إن عمى الطبيب يرى رأيى ، وقد وافقت أمى على ذلك وهى مستعدة لإفراضنا خمسمائة مارك لهذه الغاية . حقا إن أمى لطيبة القلب وأكاد أغار منك لقد باتت تحبك أكثر منى . أى المصايف تختار ؟ »

أنا أقترض من أم عروسى ؟ فلتسحق أعصابى وليسحق معها قلبى والله أن الانتحار ليفضل مثل هذه الحياة « اذهبى وحدك مصحوبة بالسلامة وا كتبى لى كل يوم ، وفكرى فى خلوتك فأنا لا أستطيع مغادرة برلين لأنى أنتظر أنباء هامة من مصر » ، وذهبت كل محاولاتها معى أدراج الرياح

ومما أوجعنى أن مرت علينا أعياد ومناسبات كان لابد فيها من تبادل الهدايا فأهدتنى خطيبتى وأهدانى أهلها هدايا ثمينة تقدر بألف مارك أو تزيد ، وكانت هداياى للفريدا فى كل مرة هدايا حقيرة لا تزيد عن خمسة ماركات

ومع كل ذلك فكنت أرى آيات الأشراق ترتسم على محياها كلما قدمت لها شيئا ، وبرى العجز كبدى وحزّ فيها ، ورأيت عندها كيسا صغيرا أنيقا تعتز به

فسألتها عنه فقالت هذه أوراق أول باقة من الورد أهديتها لى ، جمعت أوراقها بعد ذبولها ، ولم أدع ورقة واحدة منها تضيع . آه ، الفريدا ، أين أجد حبا ووفاء مثل حبك ووفائك ؟

وابتدأ اليأس يدب إلى قلبها من قرب عقد العقد ، ولو أن لواعج الحب ما زالت تصميه ، فأرادت أن تبحث لها عن طريق إلى الخلاص . فلم تكتف بما نكتبه معا ، فأخذت تشغل فراغها بكتاب تكتبه وحدها ،

وابتدأت أحتقر نفسى . وكبر على أن لا أكون ذلك الرجل المصرى القادر على توفير أسباب السعادة لزوجه ورأيت الشقة بيننا تتسع يوما عن يوم ، فأخذت أفكر أنا أيضا فى طريق للخلاص فلم أجد لى منجى إلا فى فسخ الخطوبة فلمحت فى تلطف ورفق فامتعضت من اشارتى ، فخرجت من الابهام إلى الايضاح فقالت ان يكون هذا . فلم يبق أمامى إلا التجنى على خطيبتى لإكراهها على مالا بد منه

أخذت أفص من حريتها وأصدر لها الأمر تلو الأمر ، فتقبلت كل شىء راضية . فالتزمت خطة المعارضة وتسفيه كل ما تقوله ، وكنت أعلم ان هذا السلاح أحد سلاح أنال به منها ، فعجرفتها لم أكن أجهلها ولكنها تقبلت ذلك كذلك على مضض

وكان لها صديقة من عهد الصبا تعزها كنفسها وجاء موعد ميلادها فرجتنى أن أصطحبها إلى صديقتها فى ذلك اليوم ، فقلت لن أصطحبك لأنك لن تذهبى إليها ، فظنتنى أمزح ، ولما تأكدت من نيتى أظهرت دهشتها ورجت وتوسلت وبكت ووسطت أمها وعمها ، وهيهات أن ألين ، وبقينا من الصباح إلى المساء فى أخذ ورد ، ورأت كرامتها قد مست أمام أهلها ، فصممت على الذهاب ،

ورأى أهلها أن يضربوا لنا طريقا وسطا ، وذلك ان نكتفي بإرسال آيات التبريك بالتليفون ونبعث بهديتنا مع كتاب نعتذر فيه . فقلت لا تلفون ولا هدية ولا اعتذار . إما الرضوخ وإما فرقة لا راجعة بعدها ؟

. . . . . وافترقنا إلا الأبد .

حزمت « الفريدا » أمتعتها وسافرت إلى سويسرا في نفس الليلة على أن لا ترى برلين بعد هذا اليوم ، وكان ذلك في آخر ديسمبر سنة ١٩٣٣ وقد برت .

وسقطت مريضا في الفراش شهراً

obeikandl.com